# البدايات والنهايات

رواية

فتحي سلامة



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٧

سلامة ، فتحى
البـدايات والنهـايات / رواية بقلم : فـتـحى سـلامـة. ـ القـاهـرة: الهـيئـة المـصـرية العـامـة للكتاب، ٢٠٠٦.
٢٢٨ ص ؛ ٢٧ سم.
تدمك ١ ٤٨٦ ٤١٩ ٩٧٧
١ ـ القصص العربية ـ مصر .
( أ ) العنوان
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٢٢٩٥ / ٢٠٠٦
I.S.B.N 977 - 419 - 486 - 1
ديوى ٨١٣

**الإخراج الفنى:**
**فاتن رضا**

# الفصل الأول

زهر البرتقال تفوح رائحته فى كل مكان، تذكرتها، وأرسلتُ نظرى نحو حقلنا القديم، كان هناك أولاد وبنات، وحكايات لم يعد يذكرها الفتى إلا القليل منها، .. الرجل الذى ربط الأوزة من رقبتها فماتت الأوزة .. ثم ماذا، لم يعد يدرى، جحا وحكاية الحمار، اختلطت تلك الحكايات بصوت (بابا شارو) القادم من الراديو الرابض فوق الرف الخشبى فى حجرة جدى، أتسلل لكى اسمع .. عيد ميلاد أبو الفصاد، أجرى نحو (الحارة)، هريدى لايزال يحكى، والقطة السوداء تجرى فى زقاق معتم، لم أعد أراها، ولكن يتلبسنى الخوف، أنهض مرتعبًا، أجرى نحو دارنا، أقذف جسدى على صدر أمى، أشم رائحة الخبيز، أتذوق فى دلال قطعة من فطيرة الذرة، أتلمظ وأنا أشتهى طعام العشاء .. تحملنى أمى إلى الفراش، يحيط بفراشى ستائر حريرية منقوشة برسومات لملائكة ذات أجنحة دوما أتساءل عن سر هذه الأجنحة، أتظاهر بالاستغراق فى النوم أمى لا تجيد قص الحكايات عرفت أنها تنام خلال قصها لحكاية ما، أظل أنادى عليها حتى تكمل الحكاية، ولكنها أبدًا لم تكملها، على الرغم

من أننى أتلهف لسماع بقية الحكاية، ولكنى أشفق عليها فأتظاهر بالنوم، وعندما تتنبه أمى إلى نومى أو التظاهر بالنوم الذى أجيده، ترفع جسدها الصغير بسهولة من جوارى، ثم تقبلنى بسرعة وهى تتثاءب، تمضى بعد أن تغلق الباب بهدوء .. تتقافز الملائكة المرسومة على ستائر الفراش على صوت هريدى وهو يحكى حكاية جنّيات الطاحونة الخربة .. أحاول أن أكمل (حكاية أمى ) التى لم تكملها، كيف تكون نهاية الحكاية، تنتفض رسوم الملائكة فى ثورة مباغتة، تكاد تلمس وجهى، صوت هريدى الخشن يطن معلنا عن غرق الواد سليم فى البحر بعد أن جرى وراء القطة التى لم تكن سوى إحدى الجنيات الشريرات التى جلجلت ضحكتها عندما رأت الولد سليم، يغوص فى الماء بلا صوت .. مات سليم، نهشتنى صرخة الخوف الآتية من صدرى مع خفقات أجنحة الملائكة، جذبت الغطاء على كل جسدى، سارت الظلمة، ارتعدت فرائصى، تمنيت أن تأتى أمى، .. أحيانًا كان أبى، الذى يأتى متأخرًا من عمله كل ليلة، يدخل إلى حجرتى لكى ينظر إلى دون أن يوقظنى ثم يضع حبات التفاح بجوار رأسى، أتشمم رائحة التفاح الأحمر، وتذهب عنى اختناقات الخوف ورياح الذعر .. تعود إلىّ أنقى رائحة زهور البرتقال، أجمل الروائح وأحبها إلى نفسى، يأتينى صوت عمى الصغير مع رائحة البرتقال يغنى موال أدهم الشرقاوى، بكل لسان كلمهم وبكل شجاعة الفرسان قابلهم.. أجذب أنفاسى لكى تخترق رائحة زهور البرتقال، تلافيف دماغى، أنتشى مع انتصارات أدهم الشرقاوى على المستعمرين، أحاول أن أرتفع عن الأرض كى أسمع

بشكل جيد لموال أدهم، ولكى أثبت لنفسى أننى أيضًا بطل وأننى سوف أحارب المستعمر .. وتنطلق رصاصة الخيانة من أقرب أصدقاء أدهم الشرقاوى، أهذا هو جزاء أدهم، هكذا يتم اغتيال الشرقاوى، ندخل إلى القرية، ترتفع من البيوت الواطئة الطينية أدخنة سوداء ورمادية، مع رائحة خضار مسلوق، يبدأ الغثيان يهاجم معدتى، ندلف إلى حارتنا، أشم رائحة الأرز المسلوق، تزداد رغبتى فى القىء، أقاوم، يمسك عمى بيدى، يبدو أن الهواء قد رقد على أرض الحارة وامتلأ بالماء، رائحة عطنة تنبعث من الأرض، يدور رأسى، وأتذكر تلك الفتاة السمراء التى لعبت معى لعبة سمجة لم أستسغها ولم أكلها وانتابتى بعدها حالة من الحزن، كنت أود أن أمسك بخيوط الأحلام، قالت أمى وهى تلمس كتفى

- ما بك يا ولدى

قلت، فى محاولة للهروب من عينيها

- لاشىء .. الدخان ملأ صدرى

تسرع جدتى نحوى، تدفع يد أمى عنى، تلوم عمى؛ لأنه يأخذنى معه إلى الحفل على الرغم من تحذيرها إياه، تمسك بى وتدفعنى إلى حجرتها .. أتنفس فى راحة، تبتسم جدتى وهى ترفع عنى ملابسى لكى أرتدى ملابس نظيفة بعد أن غسلتنى بماء معطر بالورد، انتعشت، جلست بجوارها، راحت تطعمنى بيدها(أرز معمر) الذى أحبه كثيرا، كانت تضع الأرز فى فمى وهى تحكى .. كان جدى الكبير سيدى سالم أول من سكن فى هذه المنطقة؛ لأن

أجداده قدموا من الحجاز، ولم تكن هناك إبل كثيرة لكن هناك مزروعات خضراء شاسعة، أزعجهم البحر الذى يفيض كل عام ويغرق كل الأراضى ويهدم البيوت التى بنوها وفى كل عام تغرق الدور وتتهدم وتموت الزراعات تحت زحف ماء البحر، حتى جاء جدى سالم .. شبعت يا أمى لم أكن أعرف يومها أنها جدتى، كانت أمى أو هكذا كنت أعتقد، أحاول الإفلات من قبضتها وتحاول هى أن تدس فى فمى قطعة أخرى من الأرز المعمر.. كانت أصوات أولاد الحارة ترتفع خارج الدار جدى كان يضىء فانوسًا كبيرًا يعلقه فى خارج الدار فيضىء جزءًا كبيرًا من الحارة، أقفز إلى الخارج، لم يكن لى دور مهم مع مجموعة الأولاد، فأنا لا أجيد حكاية المكاوى، كما لا أجيد اللعب مهما كانت لعبة سهلة، أنا مجرد متفرج، مندهش، مبتسم، لولا أنهم يجلسون فى بقعة الضوء القادمة من دارنا، وشموخ بيتنا فى مدخل الحارة، يجعل لى مكانة متميزة، فلا يسخرون منى، ويتركوننى استمتع بالفرجة والمشاركة بالانبهار والدهشة .. ولكن أول من يجرى خوفًا وهلعًا عندما يندمج هريدى فى حكاياته المفزعة .. أجرى نحو دارنا أدق على الباب الخارجى بكل قوتى ..

جاءت ليلى، بشرتها بيضاء مشوبة باحمرار خفيف، شعرها الذهبى المرسل فى جدائل، وزهرة حمراء تزين رأسها، حاولت أن أتحسس تلك الزهرة ابتسمت ليلى، قالت :

- هل تظنها وردة حقيقية

كنت شاردًا يطن الهواء الساخن حول أذنى، قلت :

- أنا أركب الحمار، هل تجيدين ركوب الحمير

نظرت نحوى فى بلاهة، شعرت أننى انتصرت عليها وعلى وردة شعرها الحمراء، عدت إلى دارنا، كنت أود أن أحكى لكل من أقابله، ولكنى لم أفعل، قالت جدتى:ـ

ماذا بك؟

قلت متشبثًا بالسرية سعيدًا بكتمانى للخبر :

- لا شىء

ابتسمت وقالت:ـ

- أنت لا تجيد الكتمان، وسوف تحكى لى

قالت هذا وبدأت فى وضعى فى الماء؛ لكى أستحم كما هى العادة كل ليلة، جدتى عاشت عمرها فى المدينة، تزيت بزى نساء العائلات فى البندر، وتعودت العيشة المرفهة، لهذا كانت تحافظ على عاداتها بعد أن عادت لتعيش فى القرية علمتنى عادات أهل البندر كلما سمحت ظروف الحياة القروية، حيث لا ماء متاح إلا بطريقة الأوعية المحمولة، والآنية الفخارية، ومع هذا لم تكن تتوانى عن حمام كل ليلة، قلت لجدتى فجأة:

- ليلى بنت مدير المجلس الجديد

نظرت نحوى فى لامبالاة، قلت:

حلوة قوى.. شعرها أصفر، وخدودها حمراء

ابتسمت جدتى وقالت :

ـ فقط؟

قلت، وقد شعرت بالشجاعة:

ـ إنها تشبهك يا أمى

قالت فى حسم:

ـ ولكنها أكبر منك

لم أكن أعـرف أن جـدتى رأتهـا، شـغلنى هذا الأمـر، هل جـاءت ليلى إلى دارنا، قاطعت جدتى إسترسال أفكارى، قالت:ـ

- إنهم يسكنون بيتا من بيوتنا.

فى اليوم التالى جاءت ليلى إلى دارنا كان معها عم برعى الخفير الذى أبلغ جدتـى شكر (الهانم) أم ليلى، ورغبتها فى زيارتنا، تسللت ليلى من بين أيدى عم برعى، جـاءت مندفـعـة نحـوى وقـالت فى همس:ـ

هل تعلمنى ركوب الحمير؟

لم أناقش الأمر، أسرعت وأخذت بيدها، وانطلقنا نحو حقولنا كان البحر مشحونًا بالغضب وتلون لونه، باللون البنى والرمادى، أسرعنا نحو الجسر الترابى، كان (حصاوى) وهو حمارى المفضل يقف وحده .. وكانت أصوات الشبان من بلدتنا تتقاطع بنداء

ممطوط واحد لا يتغير، نظرت نحو الماء الذى كان يفور ويغلى ويتشكل فى دوائر سرعان ما يندفع وسطها لتدفن رأسها، وتتكور دوائر أخرى، .. قالت ليلى:

ـ هذا فيضان النيل

قلت مصححًا بكبرياء:

ـ إنها هوجة البحر

ضحكت بصوت مجلجل، شعرت بالخجل، ثم قالت فى ثقة:

ـ هذا اسمه النيل .. وليس البحر

كدت أصفعها، لأن هذا هو البحر، اسمه هكذا .. البحر، اختطفت عودًا جافًا ثم انحنت على تراب الجسر وبدأت ترسم على التراب، نسيت غضبى وسعدت بالرسم على التراب، قالت بعد أن انتهت ورفعت رأسها:

– هذا هو اسمك وهذا هو اسمى.

ياه .. إن إسمى ممكن أن يكتب، ولكن لماذا رسمت هذا الرسم، قالت:

– إنه القلب، القلب الذى يجمعنا

وضعت يدى على صدرى، راحت تضحك فى كركرة جميلة، وجرت نحو حديقة البرتقال التى كانت بعيدة عن الجسر، أمسكت بزمام الحمار وقفزت على ظهره، جريت بالحمار دون خوف، كان

الحمار يجرى، مسرعًا وكأنه يطير، أوقفت الحمار، وقربته من كومة رماد أرشدتها كيف تقفز على ظهر الحمار، ركبت وهى ترتعد من الخوف تحرك الحمار، وبدأت ليلى تصرخ فزعة، رأيت دموعها تنهمر قلت: .

إنه أمر سهل، لا تخافى

ازداد فزعها، وبدأ بكاؤها نشيجًا متناغمًا، بعد قليل هدأت واستشعرت بعض السعادة التى ظهرت على وجهها، قالت بهدوء :

- هذا يكفى

ساعدتها حتى قفزت، جرت نحو القرية بسرعة أدهشتنى، لم أحاول اللحاق بها، كانت السعادة تغمرنى وتشلنى، وكانت الراحة تتملكنى، صاح أحد الشبان من الواقفين على الجسر:

- العون يا هوه !

ترددت النداءات، وتجاوبت الأصوات، واختلطت الأصوات بخرير الماء المتدافع، زامت الأرض، تكورت يدى فى غضب ممزوج بالخوف، اندفعت المياه الرمادية، كانت تولول فى شراسة، مالت أعواد (الذرة)، تلاشت الحدود، صراخ الرجال كان يملأ السماء، خطفنى عمى فى عنف، رفعنى فوق رأسه، رأيت الماء الرمادى أصبح فى لون التراب الأسود، كانت الحمير والجاموس والأبقار تفر فى رعب مذهولة عما حولها، جرى عمى نحو دارنا، كنت انتفض من الخوف، كان اللون الأسود يغطى كل شىء حتى أن

السحاب الأسود غطى السماء، عويل النساء، نباح الكلاب، قفز عمى عتبات الدار، صعد بى إلى الدور الثانى، كان جدى ينتفض غضبًا ويصيح بأسماء أولاده .. جدتى لم تكن تبكى، كانت متماسكة بشكل غير عادى، جذبتنى من فوق ذراع عمى، أمرته أن يعود إلى الحقول وأن يتماسك، قالت إن الله شاء، وإنه الخير، وإن البحر فاض، بالخير عم البلاد، لا أدرى ماذا أفعل، أجلستنى فى أول حجرتها قالت :

لا تكن جبانًا وتشجع، إنه البحر يمسح على ظهر الأرض الخضراء.

لم أكن أعرف ماذا حدث، لم أكن أفهم معنى ما يحدث .. ولكنه تكرر، قلت لليلى :

- رمانك طاب يا ليلى

كانت أغنية يرددها البنات فى حارتنا كلما سمعتها فرائصى ترتعد وأشعر بالخوف، ولم أكن أعرف معنى الكلمات .. ابتسمت ورددت فى غناء .. رمانك طاب يا ليلى وبقى حاجة هايلة

ضحكت، سوف أتعلم كتابة اسمك على تراب الجسر، الجسر الذى تحول إلى وحل أسود، رأيت أعمامى وأخوالى يركبون المراكب ويجمعون (أكواز الذرة) وحبات الفلفل الأخضر والباذنجان، وأحيانا يضعون أعواد الذرة على سطح المراكب، والماء يغطى أجسادهم حتى صدورهم، يمنعوننا نحن الأطفال من السير فى الماء، .. رائحة

الماء الأسود غطت الشوارع والحارات والبيوت أيضا، كل شىء يبلله الماء .. كانت ليلى قد رحلت وتركت معى مجموعة من الكتب الملونة، كلما شعرت بالشوق إليها جلست لأتصفحها .. غنت البنات فى حارتنا

( رمانك طاب يا ليلى )

كنت أشعر أن هذه الأغنية تفضحنى، تعرينى، أشعر بالخجل، مشينا وراء هريدى حتى الجسر الترابى، قفز الجميع خلفه، غطى الوحل أنصافهم السفلى، كانوا لا يرتدون السراويل، حفاة، حذائى كان من الجلد الأبيض وأيضًا سروالى الداخلى، لم أشأ أن تتوسخ ملابسى، اكتفيت بالفرجة، بدأ كل منهم فى صيد السمك، كان السمك صغيرًا تبرق فضته تحت الضوء، راح كل منهم يجمع ما يمكنه جمعه ولكن ما يكاد يمسك مجموعة من الأسماك حتى تفلت منه، شعروا أن ما يفعلونه لا يجدى، راحوا يضربون بعضهم البعض بالوحل، لطخوا جلابيبهم وأجسادهم بالوحل، شعرت أن ليلى تراقبنى .. سمعت البنات يغنين: .

- رمانك طاب يا ليلى

قفزت راجعًا إلى دارنا، اتجهت إلى حجرة جدتى، كانت تحكى لجارتها عن جدنا الكبير الذى بنى الجسر الترابى ومنع البحر من دخول المنازل، عندما شاهدتنى قالت :

- ألا تسلم على عمتك؟

لم أعرف أن (الخالة نبيهة) هى عمتى، لم أهتم، كل أهل الحارة أقاربنا جدتى تقول هذا، ألم يكن جدنا الكبير هو الذى بنى بلدتنا لأهله الذين جاءوا معه من الحجاز، حاولت أن أتخيل (الحجاز) هذه، وهل هناك أقارب لنا هناك .. قالت جدتى :

- هناك عند البحر الكبير كنا نعيش فى بيت بنى اللون، وكنا نأكل دوما السمك، وكنا ..

حكايات جدتى عن حياتها القديمة، كيف تزوجت، وكيف رحلت من الكفور حيث كانت تعيش مع أهلها الذين هم أيضا أهل زوجها، وعاشت بجوار البحر الكبير، وكانت ترى (الحريم) يكاد لا يستر أجسادهن شىء .. ومع هذا لم تحاول أن تستحم فى البحر كما يفعلن، تتحدث جدتى عن كرم جدى ومدى حفاوته بها، وعن الحياة هناك بجوار البحر، حتى سقط جدى مصابًا فى ظهره، عاد بعد معاناة الألم والمرض إلى الكفور، ولكنه لم يهدأ ولم يستسلم وجاء إلى قرية أجداده لكى يزرع الأرض، كان البحر الصغير يحيط بالقرية .. سمعت الأولاد يعزفون، أسرعت إلى أول الحارة، كانوا يمسكون (بفريد العبيط) وأخذوا يهللون، كان هو يضحك فى بلاهة، جريت نحوه رافعًا يدى فى عنف، خاف الأولاد وتفرقوا .. قال هريدى:

- ماذا بك يا عدو الشمس؟

كان يعرف أن هذه الجملة تغضبنى، لم أرد، ابتلعت غضبى وأمسكت بيد فريد الذى راح يضحك فى سعادة. بعد لحظة تشبث بى، قدته إلى دارنا، رحبت أمى به أجلسته فى مدخل الدار وقدمت

له اللحم والثريد، راح يأكل فى شراهة لاحظت أنه يأكل بسرعة ولكن دون أن تسقط منه قطع الثريد، فجأة جرى نحو جدتى التى كانت تصنع الفطائر الصغيرة، همهم بكلمات لم أفهمها، قالت جدتى فى جدية وهى تبتسم:

- ربنا ينور عقلك .. خذ يا فريد

ناولته (كبشة) من الفطائر الصغيرة وضعها بسرعة فى جيب جلبابه الخارجى، زام، ودار حول نفسه ثم اختفى من البيت، رأيت أمى تمسح دموعها .. كنت أود أن أضرب هريدى ولكن خوفى من ضخامة جسمه جعلنى أفكر فى الأمر حتى عدلت عنه.

فى اليوم التالى، قال أبى إنه يجب أن أذهب إلى (الكتاب) لكى أتعلم، لم أفهم ما يعنيه، أجبت بالموافقة، خرجت إلى الحارة، قابلنى الأولاد بترحاب شديد أعطيت كل واحد منهم فطيرة صغيرة، راحوا يلتهمون الفطائر فى لذة واضحة، شعرت أننى أكبر حجمًا من هريدى، قلت:

- عندى فكرة لصيد السمك.

قالوا وهم يتلمظون:

- ما هى ..على أن تعطينا المزيد من الفطائر.

قلت وأنا أمد يدى بواحدة لكل منهم:

- نحضر (المشنات) الجريد ونضعها فى الماء ثم ننشلها فجأة فيبقى السمك وينسل الماء.

ضحكوا، ورأيتهم يسرعون نحو دورهم، بعد برهة كان كل واحد منهم معه (مشنة) .. ذهبنا إلى البحر، اندفعوا نحو الماء الراكد، كان الماء رمادى اللون، غليظ القوام، راح كل واحد منهم يضع (المشنة) فى الماء فإذا أخرجها كانت السمكات الصغيرات تتقافز بلونها الفضى، وعندما أعادوا الكرة اختلط السمك بالماء، هرب بعضها، ولكن عندما رفعوها ثانية كانت الأسماك المحبوسة فى ازدياد، أسرع كل منهم قد جمع أسماكه ووضعها فى طرف جلبابه الذى أمسكه بفمه، حتى يفرغ لإعادة الكرة .. كنت أراقبهم فى سعادة .. وعندما شعروا بالتعب صعدوا إلى الجسر وقد امتلأ (حجر جلباب) كل منهم بكمية وافرة من السمك الصغير، أسرعوا إلى دورهم، عدت إلى دارنا وحكيت كل ماحدث لجدتى وقلت لها عن رغبتى فى الاشتراك فى صيد الأسماك قالت وهى تبتسم:

- سوف تتسخ ملابسك، وتلك الأسماك الصغيرة لها أمهات وسوف تحزن الأمهات على فقدها، لاحظت الحزن على وجهى، فعادت تقول :

- ولكن لوتركنا هذه الأسماك الصغيرة بعض الوقت لعادت إلينا كبيرة يمكن صيدها وأكلها.

قلت فى إشفاق:

- ولكن أمهاتها تحزن.

قالت بسرعة:

- لا .. لأن الأمهات يلدن الكثير من الأسماك الصغيرة ولن تحزن عندما ينصرف عنها من يكبر منهن، أشارت إلى إناء كبير به أسماك كثيرة وقالت :

مثل هذه .. وسوف أصنع لك الآن كعكة من السمك .. ساعدنى.

قامت لتوها، وأخرجت بعضًا منه، وراحت تلصق كل خمس سمكات معا بالعجين ثم تضعها فى الزيت .. بعد قليل كنت مستمتعًا بأكل كعكات السمك .. سمعت أصوات البنات يغنين فى الشارع ..

- يا محنى ديل العصفورة

أعقب ذلك أصوات زغاريد، عرفت أن هناك زفة عروسة، انطلقت مسرعًا نحو الشارع، كانوا ، نساء يحملن رايات بيضاء بها بقع حمراء بلون الدم، يزغردن فى نشوة ..

- قولوا لأبوها يقوم بقى يتعشا .. قولوا لأبوها الدم بل الفرشة.

بعض الرجال يسيرون أمام زفة الأعلام البيضاء، أحدهم معه بندقية راح يطلقها تختلط الطلقات بزغاريد النساء، لم أفهم سر هذا الاحتفال على الرغم من أننى رأيته من قبل عدة مرات، جاء عمى وقال: -

- لماذا لا يكفوا عن هذه العادة الذميمة

قلت فى فضول:

- ما هذه العادة؟

أسقط بصره نحوى، ولكزنى فى كتفى، صرخت، قال:

- كف عن الصراخ حتى لا تسمعك جدتك.

قلت، وقد عرفت سر خوفه:

إذا لم تخبرنى .. سأعود لأصرخ عاليًا

حملنى على ذراعه، أصبح رأسى قريبًا من رأسه، قال :

- عندما تكبر سوف تعرف

قلت فى إصرار:

- أريد أن أعرف الآن

ارتفع صوت النساء

- (إحنا الكرايمه يا ولد، وما فيش زينا ياولد)

سعدت لأنهم قالوا اسم أخوالى، ولكنى أريد أن أعرف .. ما هذه العادة التى تغضب عمى، سألته، لم يتمالك إلا أن يعيدنى إلى الأرض ويفر هاربًا لم أستطع سؤال هريدى مع أننى كنت أعرف أنه يعرف، فهو كبير الحجم، دائمًا يجلس فى أرض الطاحونة القديمة، وأحيانًا يتربع على السلم الرخامى المؤدى إلى ( مقام سيدى يوسف) .. وأولاد الحارة جميعهم يستمعون إليه، ويأخذون بكلامه عن كل شىء، فهو القائد الذى يتحرك أولا ثم يتبعه بقية الأولاد .. ذات مرة سبه أحد رجال شارعنا لم يتحمل الإهانة، رفع يده ورماه بحجر صغير، انهالت الأحجار الصغيرة يقذفونها على الرجل الذى

فـر هاربًا، ولـكن الأولاد لم يدعـوه وشـأنه جـروا خلفـه يقـذفـونه (بالطوب والحجارة) حتى أغلق عليه داره، من يومـهـا والكل يعرف مـقـام هـريدى، ولكنى رأيتـه صـبـاح ذات يوم وقـد أمـسكت به أمـه وراحت تضـربه ضربًا قـاسيًا بحذائها السميك، وهو يبكى ويتوسل، ولا أدرى كيف تحـمل هـريدى هذه الإهانة المؤلمة، وكيف لم يحـاول الدفاع عن نفسه، أو حتى الفرار من هذا العقاب البدنى وأمه امرأة عجوز نحيفة ضعيفة، وبصرها قليل، يومها تألمت أشد الألم، ولكن مـا راعنى أننى وجـدته ظهـر ذلك اليـوم وهو يضـحك ويداعب عم (قلش) الطبـال الذى يغنى فى الأفـراح ويضـرب الطبلة ويرقص بالعصا .. سمعت البنات الصغيرات يرددن:

- يا هوا يا سيسى

نشف لى قميصى

لأمى تضربنى

وأبويا يدبحنى

والمعزة تحوش عنى

قلت لهريدى، وأنا أتشجع، وإن كانت صورته وأمه تضـربه تشغل بالى، وتجعلنى لا أعنفه :

لماذا لا تذهب إلى الحقل لترعى جاموستكم؟

ضحك فى نشوة غريبة، نظر نحوى، وقال :

- ابتعد عنى يا ابن (البيه)

إنما ظن هريدى، لست ابن البيه، أنا ابن أبى الحاج الكبير، كبير البلدة، قلت فى حدة:

- يجب أن تعمل بالنهار مثل بقية الأولاد

زام وقد كور قبضته تجاهى، ثم أعادها، وقال:

وهل تصدق أن لدينا جاموسة، أو حتى لدينا حقل؟

قلت فى تحدٍ لكى أعرف، وأبدو كبيرًا مثل أبى :

- الناس يقولون:

قال، وقد هدأت ملامحه، وجلس على الحجر الرخامى لسلم سيدى يوسف:

ليس كل الناس مثلكم، أنتم تملكون كل شىء، أما نحن فلا نملك.

قلت فى إصرار، لا أدرى يومها لماذا كنت هكذا ماكرًا وخبيثًا:

- إذًا ماذا تملكون؟

انفلت جريا من أمامى يردد:

- يا طالع الشجرة، هات لى معاك بقرة

تحلب وتسقينى، بالمعلقة الصينى

والمعلقة انكسرت .. يا مين يسقينى

وسمعت صوته وهو يردد .. يا مين يسقينى .. يا مين يسقينى، وندمت على سؤالى له .. ولم أعرف وقتها ماذا كان يملك هريدى

ومـاذا كانت تملك أمـه، حـتى جاء يوم العيـد، وخـرجت فى صبـاح العيد ارتدى كل ما هو جديد وفى جيبى جنيه كامل، أصر والدى أن يعطينى إياه على أن أنفقـه بالكامل فإذا فعلت هذا، أعطانى واحد غيـره، ورأيت هـريدى جالسًا على السلم الرخامى لسيدى يوسف .. رأيتـه يبكى، اقتـربت منه كـانت رغبـتى فى الاعتـذار تشـدنى إليـه، سـألته:

- ماذا يبكيك؟

قال مشيرًا إلى محل الخياط فى نهاية الحارة:

- قـالت أمى إن عم حسـين سـوف ينهى خيـاطة جلبـابى الجـديد مساء أمس، ولكنه حتى اليوم لم يفعل.

انهمرت دموعى وحـزنت حزنًا شديدًا، ولم أملك إلا أن أعود إلى دارنا وأصعد إلى حجـرتى أنام فى فـراشى متناسيًا أمـر العيد ومـا يحدث فيه من لعب ولهو .. وعندمـا حان مـوعد الغداء بحثوا عنى، أرسل أبى من يبحثون عنى فى كل مكان، حتى عثـرت أمى علىّ وأنا نائم فى فراشى ولم يكن أحد يتصور أننى أنام فى هذا اليوم، وجاء أبى يسـأل فى لهـفـة عن سـر نومى واختـفـائى فى مـثل هذا اليـوم الجمـيل يوم العـيد، قـصصت عليـه مـا رأيتـه وبكاء هـريدى لأنه لم يحصل على جلبابه الجديد، ولامنى أبى لومًا شـديدًا على تصـرفى الغبى والأحمق، وأيضًا على غبائى وهو يقول:

- كان الأولى بك أن تشترى جلبـابًا جديدًا لصـديقك هـريدى، أو أن تعطيــه جلبــابًا جـديدًا من عندك .. أو على الأقل تتنـازل عن

جلبابك الجديد له وتعود لترتدى آخر .. ألم تفكر فى حل لمسألة صديقك بدلاً من النوم والهروب والبكاء.

وصحبنى أبى إلى مسكن أسرة هريدى الذى يجرى وسط دارهم يريد الإمساك بالبطة التى تفر منه، ورأيته وقد ارتدى جلبابًا جديدًا بألوان زاهية، وعندما رأى أبى، أسرع إليه وقبل يده وأعطاه أبى نقودًا، وجاءت أمه نحونا وهى تدعو لأبى ولنا بالمزيد من العز وطول العمر .. ومع هذا لم أستطع نسيان هريدى وهو جالس يبكى على الحجر الرخامى لسيدى يوسف .

- (فجل اللمعة)

لا أدرى ما علاقة اللوبيا بالفجل، كانت النساء اللائى يحملن مشنات الفجل ينادين بصوت منظم، وأحيانًا يبدو عذبًا جميلاً: لوبيا يا فجل لوبيا، ولا أعرف ما المقصود بكلمة لوبيا، ولا أدرى علاقتها بالفجل يأكله الناس مع الطعام فى الغداء أو العشاء، ويأكلونه مع الجبن والعيش أو الملح والعيش وأحيانًا نادرة مع العيش والطبيخ، أو الطعام المطهى على النار ودائمًا ما يكون نباتًا من نباتات الحقول وأشهرها الخبيزة والرجلة ومثلهما، تسير النساء فى شارعنا، وهن يحملن على رءوسهن (المشنات) الجريد ويرفعن أصواتهن بذلك النداء .. ولكن هذه الأيام اختلف النداء ولم تكن اللوبيا هى صفة الفجل إنما أصبحت (اللمعة) هى الصفة التى تسبق الفجل وتأتى بعده، أحيانا كثيرة واللمعة أعرفها وأعرف سرها وأتباهى بأننى أسعد عندما أذهب إليها، واللمعة تأتى بعد

انحسار مياه البحر، وتترك المياه الأرض الزراعية التى تجاور البحر منحدرة نحو البحر، وتترك المياه السوداء والرمادية آثارًا على الأرض تجعلها تبدو وكأنها مفروشة بالذهب، يبرق ذهبها تحت ضوء الشمس ويتقلب الذهب ما بين لامع يتلألأ وبين مظلل لا يبين، وكنا نجرى على سطح الأرض ونحن نتسابق فى التزحلق، وكثيرًا ما كنا نتساقط على تلك الأرض .. وانبهرت بتلك الأرض المفروشة بالذهب وخلعت حذائى وتركت جسدى يدور فى دوائر، سعيدًا بانزلاقى نحو البحر، أحيانًا أصل إلى قرب الماء، وأحيانًا أسقط قبل أن أصل إلى هناك، وأمسك بقطعة الطين التى يبرق منها الذهب الأحمر، ولكن عندما أفتتها بين أصابعى لا أجد ذهبًا ولا فضة، ومع هذا ظل هذا الذهب يبرق أمام عينى، وبعض الناس يزرعون تلك الأرض الذهبية بالفجل الذى ينمو سريعًا خلال أسبوع واحد، ويقولون أن طعم هذا الفجل المزروع فى الأرض التى تلمع لذيذ بدرجة كبيرة، وتتباهى البائعات بأنهن يبعن فجل اللمعة الذى نبت فى تلك الأرض الذهبية، ويظل هذا الفجل الخاص طعامًا لأغلبية سكان البلدة ومصدر ثروة للزراع والبائعين، ولم أذق هذا الفجل، على الرغم من إلحاح عماتى وزوجات أعمامى، فقد كانوا يأكلنه بشراهة وخاصة أنه يأتيهن من حقولنا ..

تبدأ المياه فى انحسار، وتتساقط على الأوراق من على الأشجار، ويبدو النهار قعيدًا، ونضطر اللعب مع القمر .. يردد الأولاد والبنات:

- يا قمرنا يا هادى يا أبو الشد البغدادى

طرحة أمى بحواشى، فيها قرون الفول الأخضر

يا قمرنا يا هادى

وتحلو الألعاب مع ضوء القمر، يبدأ كساب فى اللعب ونتبعه جميعًا، يبدأ كساب سائلاً:

- كركر مين ده؟

يجيبه الجميع وقد عرفوا اللعبة، ويمد كل منهم يده نحو يد كساب المضمومة مع رفع إصبع واحد، ويرددون: -

- كركرنا

يعود كساب إلى السؤال فى ترنيمة جميلة:

- كركر مين ده؟

يرد الجميع بنفس الترنيمة المنضمة:

- كركر السلطان؟

يسأل كساب، ولاتزال الأكف المضمومة متراصة فوق بعضها:

- فيه إيه؟

يقول الأولاد والبنات:

- خوخ ورمان ..

وتتوالى اللعبة، وكساب يسأل عن نصيبه من الخوخ والرمان الذى اتضح أن القطة أكلته، ودبحها الناس لأنها أكلت (منابه)،

وشربت العصافير دمها، وتتوالى الأسئلة لتجد إجابات سريعة، حتى تصل اللعبة لذروتها .. ولا أذكر كيف تنتهى اللعبة، أعرف أن هناك العديد من اللعبات التى نغنى فيها ونسأل وكلما سألنا سؤالاً يتولى عنه إجابة تحتاج إلى سؤال .. لأن البيضة محتاجة فرخة، الفرخة فى حاجة قمحة والقمحة عند القمّاح .. وكساب وبسيمة يحفظان هذه الأغنيات بشكل جيد .. حاولت أن أحفظ إحدى الأغانى لم أستطع ..

أنا الغــراب النوحى النوحى، أخطف وأطيــر على سطوحى سطوحى، ولما صـعـدت إلى سطوح دارنا لم أجد غـرابًا، وجدت أكوامًا من العش متــراصـة بشكل هندسى، ورأيت أسـقف الدور المحيطة بدارنا، بل أننى رأيت مأذنة الجامع الكبير، بعدها رأيت الحقول التى كانت تعد فى ذلك الوقت للزراعة، بهرنى المشهد البراح وتعودت أن أصعد إلى السطح وأتأمل ما حولى .. قالت عمتى إنها ستحملنى إلى (الكُتاب) لكى أحفظ القرآن الكريم وأتعلم علم الحساب، وفرحــت وحملتنــى عمتى وكانــت فــى ذلك الوقـت لا تبدو عمة حقيقية، لأنها لم تكن إلا طفلة كبيرة، ولكن جدتى قالت إنها عمتى لأنها شقيقة أبى، لا يهم عمتى أو صديقتى فرحت بحملها لى على كتفها، وذهبت بى إلى عم سليمان معلم الكتاب، وأوصته أن يحفظنى القرآن الكريم وأن يعاملنى معاملة رقيقة .. أجلسنى عم سليمـان على الأرض فى أول الصف، شعرت ببرودة تلك الأرض ولم أسـتـرح تمامًا من هذه الطريقـة فى الجلوس فلم أتعودها على الرغم من أن أفراد أسرتى جميعًا يجلسون هكذا فى

المنزل، تململت فى قعودى وودت أن أقف أو أجلس على مقعد، ولكن نظرات عم سليمان وتلك العصا الرفيعة الطويلة فى يده جعلتنى أتحمل، وبدأ الرجل.

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

واندفع الأولاد من خلفى يرددون بصوت جهير، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كانوا كثيرًا، لم ألحظ هذا عندما أدخلتنى عمتى، ردد الرجل مرة ثانية أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هتفوا من خلفى بصوت أشد قوة، اقترب عم سليمان من وجهى وردد مرة أخرى، ورد عليه الأولاد بصوت أعلى، لسعنى بعصاته بقسوة، نفر الدم فى عروقى، لم أتحمل الألم الذى كان شديدًا، لم أحاول البكاء خجلاً من الأولاد جريت مسرعًا نحو الشارع، هابطًا الدرج العالى الذى صعدته مع عمتى، وما أن استويت على قدمى فى الشارع حتى أطلقت عقيرتى تجاه عم سليمان مرددًا فى تلقائية:

ـ عم سليمان جاك تعبان

سمعت قهقهة الأولاد، جريت خوفًا ورعبًا حتى اندفعت نحو أحضان عمتى وأنا أشهق بالبكاء، تحسستنى فى حنان، ظهر الألم على وجهها وهى تقول بعد أن سمعت مارويته:

ـ لن تذهب إلى هذا الكتاب ثانية فلا تخف

وعدت إلى اللعب مع العيال مرة ثانية، وأصبحت صديقًا لكساب بعد انصراف هريدى الذى التحق بالعمل فى (الوابور) وأصبح يعود

فى المساء متظاهرًا بأنه أصبح رجلاً لا يليق به أن يلعب بعد اليوم لهذا تولى كساب الزعامة، وإن كان لا يحظى بقوة هريدى الجسدية ولا يملك اندفاعاته السريعة، إنما كان بطىء الحركة، كثير الابتكار للألعاب الشيقة التى لا تحتاج إلى عنف .. وهكذا تعلمنا .. التعلب فات و.. واحد اتنين، خمسة ستة، وعدينى من هنا .. لأ أمى تضربنى لأ من هنا، لأ من هنا وهينا مقص، وهينا مقص، هينا عرايس بتترص هينا فاطمة الحجازية، شعرها ضانى.. ضانى .. وشعرت بالسعادة لتولى كساب الزعامة لأولاد وبنات حارة سيدى يوسف ولأن سيدى يوسف هو أحد أجدادى، والناس هنا يحترمون ذكراه بعد وفاته وأقاموا له ضريحًا ومزارًا، ويجلس فى مندرته كبراء البلدة فى المواسم والأعياد وفى مناسبات الموت والزفاف، .. فقد شعرت أنه يجب أن أتحلى بالاتزان والاحترام، وأن لا ألهو مثل بقية الأولاد، ولا يجب أن تتسخ ملابسى .. وعندما رأيت الرجال يتحلقون فى المساء فى المندرة، وهناك الكثير من الترتيبات لهذه الحلقة، انضممت إليهم ولم أجد أحدًا يعارضنى، ألست حفيد هذا السيد المحترم ذى الكرامات التى يتحدثون عنها، وقف الرجال، وقفت مثلهم، بدأ المنشد فى الحداء وفق نغمة رتيبة، واهتز الرجال وهم وقوف يرددون فى همس وضراعة .. الله .. الله ..، التحقت بصف الرجال، رحت أنا الآخر أردد مع المنشد الله .. الله .. شعرت بالسعادة، وأننى متميز عن الباقين، كنت أود أن يرانى الأولاد، حاول كساب، ومعه ولد آخر الدخول، منعه عم عبد الصادق كنت أود أن أخرج لسانى لهما .. بعد قليل أسرع المنشد فى الغناء،

وازدادت سرعة الصفق، واهتز الرجال وهم يرددون، الله .. شعرت بالتعب جلست مكانى، كان جلباب الرجل الذى بجوارى يلطم خدى مع كل حركة، قذفنى النوم إلى أرض خضراء ورجل يجرى، غفوت ثم أفقت على الرجال وقد تملكهم الحماس فراحوا يترنحون بقوة،..

أدركنا، أغثنا، يا غافر، الذنب يا عظيم، أدركنا، أغثنا يا محمد يا رسول الله .. مدد .. مدد .. المدد المدد .. يا الله .. يا كريم حى .. حى حى .. الله .. الله .. وجدتنى أترنح كما يفعلون، أبذل كل جهدى لكى أفعل مثل الرجل الذى كان يقف بجوارى .. الله .. حى .. حى .. يا مغيث أغثنا .. انجدنا .. يا الله يا لطيف الطف بنا .. يا كريم .. يا حنان .. النار تأكل الحشا، نخاف ونخشى و..

ارتميت على الأرض من شدة التعب، الرجال يميلون يمنة ويسرة فى حماس شديد وبقوة، الرجل الذى يقف فى الوسط، يترنم بالكلمات وإحساس جميل يتملكنى، رائحة زهور البرتمال، وسنابل القمح تتمايل مع الريح .. أشعر بالعطش، توقفوا جاءوا بشراب ساخن أعطانى الرجل فنجانًا، لسعنى الشراب، عافت نفسى على الرغم من إحساسى بالعطش جريت مسرعًا، كان كساب ينام على الحجر الرخامى، لمست كتفه نهض مسرعًا وهو يصرخ :

النداهة تريد أن تأخذنى

أمسكت به، كنت خائفًا، قلت فى ضراعة :

ـ لا تخيفنى .. تعال معى إلى الدار

قال فى جدية:

- وهل تعطينى رغيفًا وقطعة جبن؟

قلت بسرعة:

- نعم .. سوف أعطيك ما تريد .. تعال معى أنا خائف

نظر نحوى فى دهشة وقال:

هل تخاف أنت أيضًا .. أليس جدك الكبير هو سيدى يوسف؟

قلت فى توسل:

أنا خائف وأرجو أن تسير معى حتى دارنا

قال:

- كنت أظنك لا تخاف مثلنا .. وقد رأيتك فى حلقة الذكر تفعل كما يفعل الرجال الكبار .

ذهب معى، كان الجميع مشغولين، أمى تشرف على إعداد طعام العشاء، وجدتى تجلس مع نساء كثيرات، وعمتى قابعة بجوارها، أشرت إلى كساب أن يجلس وسط الدار، جريت حتى أمى وطلبت منها عشاء لكساب، قالت فى كرم:

- وهو وقته .. العشاء يجب ألا يتأخر عن رجال أبيك الذين جلسوا فى المندرة

ومع هذا أعطتنى لحمًا وثريدًا وأرزًا وقالت:

- خذ وكل مع صديقك

أسرعت بالعشاء إلى كساب، الذى هلل عندما رأى قطع اللحم فوق طبق الأرز، وقال:

- هل تأكلون اللحم كل يوم؟

لم أستطع الإجابة لأننى لا أعرف، إننى لا آكل اللحم ولا أحبه على الرغم من إلحاح جدتى وأبى، هززت رأسى وجلست بجواره راح هو يأكل اللحم أولا وهو يقول :

يوم السبت أمى تطبخ لنا لحمًا وكل منا يحصل على (مناب) وأنا أحتفظ بمنابى لأكله بعد العشاء .. ولكن الليلة أخشى أن تأخذه منى، كنت أنظر إليه وهو يأكل فى شراهة

أوصانى كساب أن أحجز له (راية)، فى صباح ذلك اليوم، قصدت عبد الصادق الذى يعطى الرجال والأولاد الرايات، رايات مولد سيدى يوسف، وعم عبد الصادق رجل طيب وهو الذى يحرس ضريح سيدى يوسف، وهو أيضًا الموكل بتسليم الرايات وتسلمها فى المولد، .. كانت الرايات مختلفة الأحجام وإن كانت جميعها سوداء ومكتوب عليها كلمات باللون الأبيض، تقدمت نحوه وسألته أن يعطينى اثنتين، ضحك وقال :

.. لا تقدر يا ولدى على حمل واحدة .. إنها تحتاج إلى يد رجل، أصررت على أن أتسلم رايتين، واحدة لى وأخرى لكساب، أعطانى الرجل ما طلبت، حاولت رفع واحدة ولكنى فشلت، تواريت عن عم عبد الصادق حتى لا يرانى لا أقدر، جاء كساب أعطيته واحدة

رفعها بيديه الاثنتين فى فرحة، خفق قماشها الأسود وظهرت الكتابة البيضاء، وقال:

ارفع رايتك لأنها تحمل اسم الله والرسول

حاولت ولكنى لم أستطع، كانت مدلاة من عامود خشبى غليظ على يدى، قال كساب مشيرًا إلى فريد:

.. ناولها لفريد .. حتى لا تلمس الراية التراب وينالك عقاب الله أسرعت وناولتها لفريد الذى هلل من الفرحة وتلقاها فى مرح ورفعها عاليًا .. خرجت إلى الشارع معهما انضما لمجموعة الأولاد الشبان الذين يحملون رايات، رايات مختلفة، الرجال يحملون الرايات الكبيرة التى تعلو فى السماء، إحداها يرفعها رجل وقد ربط على وسطه قطعة خشب مستديرة وغرز الراية الكبيرة فيها ثم أمسك بحبل طويل يمتد أعلى الراية ..

اقتحم صوت الطبول والمزمار المكان، رأيت جدى وقد امتطى جواده الأبيض، كان هريدى هو الذى يمسك بزمام الحصان قاده حتى أول الشارع، سار خلف الحصان حملة السيوف، ثم حملة الرماح ثم الجمل الذى يحمل العامود الكبير وهو عامود خشبى فى نهايته راية صغيرة، أصبح كساب وفريد فى أول (الزفة) زفة العامود، وخلفها حملة الرايات الذين يتقدمون جدى الراكب على الحصان، كنت أسرع الخطى حتى أمشى بجوار كساب وفريد أحيانا، أو أتوقف حتى أوازى الجمل الذى يحمل العامود، كانت أصوات الطبل والمزمار تصك أذنى، حاولت أن أتحمل النساء

يزغـردن، من كل مكان .. حـاولت أن أسـأل جـدى لماذا هو يـركب الحصان وكل أهالى القرية يسيرون على الأقدام وأغلبهم يحملون الرايات والسيوف والرمـاح، ولماذا هو يرتدى جلبابًا أخضر وعمامة بيضاء، جدى القادم من بلاد البحر الكبير والذى يقرأ (الجرنال) كل يوم ويشـرب الشـاى بعـد صـلاة العصـر ويتمـتم أحيـانًا بكلمـات مبهمة لا أعـرف لهـا مـعنى .. سـوف أسـأله بعد أن تنتهى الفرجة، الأمـر بـالنسـبـة لـى يجذب فـضولى فـأحاول أن أشـاهـده، أحسست بالانتصـار عندمـا تذكـرت أننى تخليت عن الراية، لو حـملتهـا كنت لابد أن أسير كما يسـير كسـاب فى مطلع هذه الزفة فلا أرى شيئًا. عندمـا توقفت فـى منعطف الشـارع العمـومى، كـان حـملة السـيـوف ينـامـون على الأرض عـلى ظهـورهم، وكل منهم وضـع السـيف عـلى بطنه العـارية، وجدى مستـندًا إلى رجلين يخطو فوق السيوف، حتى انتهى منهم، عاد وركب الحصـان، وقام الرجـال حـاملو السيوف ولم يحدث لهم شـىء، وعـادوا كمـا كانوا يسيرون فى طابور يرددون اسم الله .. الزغـاريد تتـدافـع، أتحـمس أنا وأود أن أفـعل شـيـئًا، أتقـافـز أجرى، سعيد أنا، أدور حول الزفة وداخلها ولكن لا أحد يشـعـر بى ولا أحد يكلمنى ولا يجيب على سؤالى عن هذه الزفة وهذا الفرح الطاغى الذى يبدو على الجـمـيع .. الفـلاحـون فى مـلابس بيـضـاء، النجـار المسيحى الذى يأتى إلى دارنا دومـا، عم خليل الحداد الذى دائمـا مـا نـراه فى مـلابس متسـخـة سـوداء يسـير فـى جلبـاب أبيض بجوار موريس النجار، خالى كريم العمدة، عم عبده السـمسار الذى يقـولون عنـه أنه تاجـر شـاطر بسـيـونى مكوجى الرجل الذى يدوس

بمكواه الضخمة على الجلباب الصوفى الخاص بأبى .. ناس كثيرون أراهم مع أبى أو عنده لطلب أو حاجة .. الجميع فى ملابس بيضاء نظيفة يسيرون فى تجاور ولا يتكلمون، وكل حين يقفون وهم يرددون:

- الله أكبر .. الله أكبر

تقدم حملة الرماح ثم توقفوا فى صفين متوازيين ووضع كل منهم الرمح فى أسفل رقبته وهو منحنى، وراح جدى يمشى على ظهورهم مستندًا إلى رجلين يسيران بجوار الرجال حاملى الرماح، صرخت فى رعب، دفعنى رجل فى كتفى، انتهى جدى من السير على ظهور الرجال، قررت أن أسأل جدى وأن أعرف سر هذا الذى فعله، رفع الرجال ظهورهم، وراح جدى يسحب الرماح من رقبة كل منهم وهو يلمس موضع الرمح بأصبعه المغموس فى ريقه، بعد أن انتهى جدى عاد إلى حصانه الأبيض وعاد الموكب للسير .. انتهى الموكب أو الزفة فى الساحة الكبيرة، هاص الأولاد، عم عبد الصادق يجمع الرايات .. حفر أحدهم حفرة عميقة ووضعوا العامود الذى استقر وسط الساحة، هبط جدى من على حصانه تحلق الرجال حول العامود، بدأ جدى فى تلاوة دعاء، ثم راح الكل فى إقامة (حضرة) يرددون اسم الله .. ويترنحون، انصرف الأولاد وتفرقوا، عدنا إلى الحارة، كانت رائحة الطعام صاعدة من دارنا بعض الشبان يخرجون أوعية الطعام الكبيرة ليضعوها فى مندرة سيدى يوسف، تراصت أوعية الطعام القادمة من دارنا ودور

الآخرين على البساط وسط المندرة، والشبان يفعلون هذا بهمة وحماس .. تزوجت عمتى، فجأة قالوا هذا، أخذها رجل يعتبر ابن عمتى الكبيرة، حملوها على (هودج على جمل)، رأيتها تترنح وهى فوق الجمل، أردت أن أناديها حتى تهبط، لماذا يأخذها هذا الرجل الأفندى المقيم فى بلدة بعيدة، قالوا سوف تذهب أولا إلى دار عمتى فى بلدة مجاورة ثم تسافر مع عبد الفتاح ابن عمتى الكبيرة، جريت خلف الجمل، حزينًا يشاركنى فى الجرى فريد العبيط وكساب الذى قال إنه لن يعود قبل أن يتعشى، كان أبى فرحًا وسعيدًا يبذر النقود المعدنية على المعازيم السائرين نحو بيت عمتى الكبيرة، وأيضا حول الجمل الذى يحمل العروس والأطفال والرجال يقفزون لكى يجمعوا النقود المعدنية، جمع فريد العبيط كمية كبيرة بين يديه ناولنى إياها وهو يقول:

- فلوس أبيك .. خذها:

حاولت أن أشرح له أن هذه الفلوس أصبحت تخصه ولكنه رفض وخفت أن أجادله فيضربنى، أخذتها، كنا قد وصلنا إلى بيت عمتى الكبيرة حيث كان هناك أناس كثيرون، وارتفعت الزغاريد وملأت أصوات الطبل البلدى والمزمار الحارة، لا أدرى كيف اندسست مع كساب وفريد العبيط بين الرجال الذين تحلقوا حول موائد الطعام، دس كساب أصابعه فى طبق الطبيخ وأخرج صباعًا من الكفتة، فعل فريد مثله، لم يلاحظ أحد بين المتحلقين حول الطعام، الكل كان مشغولا بالطعام دسست يدى مثلهما لكى إحصل

على صباع الكفتة، صرخت من الألم، يدى لسعتها حرارة الطبيخ، رفعت يدى بسرعة، شعرت أننى طفل صغير بين الرجال، أعدت الكرة وأنا أغمض عينى، رفعت يدى بسرعة، كان بها قطعة من البطاطس ما كدت أضعها فى فمى حتى لسعتنى، وقذفتها من فمى بسرعة وخرجت جاريًا، ولم أذق طعم البطاطس المطبوخة من يومها..

# الفصل الثانى

## مستر توبى

تزوجت عمتى، انشغل عمى بالدراسة، انصرف الأولاد من الحارة والشارع لم يعد أحد يلعب، أدور وحيدًا فى الأماكن التى كنا نلهو فيها أحسست أن الأشياء بدت صغيرة، وأن الأماكِن التى كانت عالية لم تعد كذلك، شجرة الجميز وحيدة بين زراعات الذرة .. ذهبت إلى أبى وأخبرته أن الولد ابن أبى موسى يذهب إلى المدرسة الجديدة التى أقاموها فى بيت السلطان سعيد باشا، وأننى أرغب فى الذهاب إلى تلك المدرسة التى يرتدى التلاميذ فيها (البدلة الإفرنجى) والولد محمود يغيظنى ببدلته، وأنا أرتدى الجلباب الأبيض طوال النهار، ابتسم أبى وقال:

تعال معى .. ولكن يجب أن تثبت أنك ابنى فعلا

دخلنا حجرة الناظر، رجل أحمر الوجه يبدو أنه غاضب من أمر ما، ولكنه عندما رأى أبى وقف هاشًا ومرحبًا، قال أبى وهو يجلس وعصاه الأبنوس تلمع بين رجليه وترتفع حتى ذقنه:

ولدى يريد أن يكون تلميذًا عندك

نظر حضرة الناظر نحوى فى تأمل، وقال:

نتدخله فصل الحضانة، لم تعجبنى الكلمة، فقلت بسرعة وغضب:

- أريد الفصل الذى به الولد ابن أبى موسى

قال الناظر وهو يحاول أن يبدو عطوفًا، وكانت لهجته غريبة على أذنى:

ولكن هذا الولد فى فصل أولى ابتدائى.. قلت مروقًا:

- وأنا أريد أن أكون مثله.

تبادل حضرة الناظر النظر مع أبى الذى أظهر تأييده لكلامى، قال حضرة الناظر:

أمدد يدك وتماسك قدر طاقتك فإن استطعت تحمل كتب وكراسات السنة الأولى .. أدخلتك هذا الفصل، نظر أبى نحوى وكأنه يسأل، قلت بسرعة:

- أحملها

قال حضرة الناظر وهو يذهب لإحضار الكتب من الدولاب المجاور لمكتبه:

عندما تجيب تقولى دومًا (سير)

قلت بعفوية مطلعة:

- حاضر .. سير

ضحك سعيدًا، استبشر أبى تماسكت وأنا أثبت ذراعى المفرودتين أمام صدرى، راح حضرة الناظر يضع كتابًا فوق كتاب على ذراعى وكلما وضع كتابًا نظر نحوى، أردد:

حاضر .. سير شعرت أن أذرعى تؤلمنى، ولكنى تحاملت، أريد أن أكون فى فصل محمود أبى موسى، توقف حضرة الناظر وقال لأبى:

مبروك.. إنه الآن فى السنة الأولى الابتدائية.. والمطلوب تسديد مصروفات الدراسة الابتدائية مد أبى يده وأخرج حافظة نقوده ورفع بورقة خضراء كبيرة لحضرة الناظر الذى قلّبها بين يديه متأملا ثم قال:

- ولكن هذا المبلغ كبير يا حاج

قال أبى بسرعة وهو يقف متأهبًا للانصراف:

خذ ما يكفيك وأرسل الباقى وقت ما تشاء ظهرت السعادة على وجه حضرة الناظر، الذى قال:

إنه يحتاج إلى ملابس خاصة وزى خاص

كان أبى عند باب حجرة حضرة الناظر وهو يقول:

سيكون فى الغد بإذن الله كما تحب

سحبنى أبى وخرج مسرعًا، وكانت سراية الباشا سعيد، كبيرة ولها حدائق واسعة وكنا نخاف أن نقترب منها، وكان الأولاد يقصون عنها أقاصيص مفزعة .. وعندما تخطينا البوابة الخارجية هرع إلينا الخفير عبد الباسط وقبّل يد والدى، وراح يهمهم بكلمات غير

مفهومة.. اتضح أنه أخرس، أعطاه أبى نقودًا وأشار بأننى سوف أدخل المدرسة الإنجليزية .. سافرت مع أبى إلى البندر حيث راح أبى يدور على محلات الملابس حتى أحضر لى زيًا مدرسيًا جميلاً، وملابس أخرى أكثر جمالاً وأحذية وحقائب، وأقلامًا، وأدوات كثيرة وعندما عدنا إلى الدار أمر بأن تخصص لى حجرة بجوار حجرة جدتى ووضعوا بها دولابًا ومكتبًا وسريرًا جديدًا، وعندما نمت بها أول ليلة لاحظت أن النافذة تطل على مقابر الأسرة، وأن بعض الجماجم معراة ومتروكة فى أماكن متفرقة، ولم أنم ليلتها خوفًا من تلك الجماجم وأيضًا لارتباكى من دخول المدرسة، والخوف من وجود عم سليمان آخر، يضربنى بعصاته كما فى (الكُتّاب).

فى الصباح جاء أبى وأشرف هو وجدتى على ارتدائى الملابس الجديدة وفرحت عندما رأيت صورتى فى المرآة وبريق (الزراير) يلمع فى المرآة، وحملت حقيبتى وأمسك أبى بيدى ومشينا نحو المدرسة، كان كلبى (فوكس) يجرى خلفنا أحيانًا، وأحيانًا أخرى يسبقنا، حتى وصلنا إلى البوابة الخارجية، وهى بوابة ضخمة ولها باب خشبى كبير وخلال الباب يوجد باب صغير يصلح لمرور الناس، يقف الأخرس عند هذا الباب ليسمح بدخول التلاميذ والمدرسين..

لم أعد أذكر أول يوم فى الدراسة، لأننى لم أسمع شيئًا ولم أر شيئًا، كأن بى صمماً من أثر الأصوات الغريبة التى أسمعها، وعندما خرجت، قابلنى عمى الأكبر وقال:

لقد أوصيت بك عند كل مدرسى المدرسة، فحاول أن ترفع رأسى ورأس أسرتك، قابلتنى جدتى عند باب الدار يبدو عليها القلق الشديد، وعندما نبح (فوكس) الذى كان بصحبتى منذ أن خرجت من المدرسة حتى الدار أمرته جدتى أن يذهب ليأكل، فاندفع إلى الداخل وهو يهز ذيله فى امتنان، خلعت جدتى عنى ملابس المدرسة، ارتديت ملابس المنزل التى كنت أرتديها من قبل، راحت تطعمنى وأنا أناضل لكى لا آكل وأسرعت بالخروج كنت فى شدة الشوق للأولاد واللعب معهم، لم أجد أحدًا منهم، ولكن بعد قليل جاءنى فريد العبيط معلنًا أن الأولاد سوف يحضرون بعد أن يفرغوا من العمل، أخبرنى أن الأولاد جميعًا يعملون فى الحقول ويجرون وراء الحمير أو يجمعون الثمار .. رغبت فى أن أشم رائحة زهور البرتقال، كان الخريف بأوراق الشجر التى تتساقط على الأرض وريحه التى تزكم أنفى تدفعنى إلى عدم الرغبة فى شىء، جاء كساب أولا وجلس مهدودًا على السلم الرخامى لسيدى يوسف، كان يبدو مثل الرجل الكبير الذى يعمل لدينا، لخدمة المواشى ويظل داخل مكان المواشى طوال النهار، وعندما يجلس ليأكل وكانوا فى دارنا يعملون له ألف حساب لأنه يأكل كثيرًا، وكانت أمى تحرص على أن تضع له طعامًا كثيرًا حتى يشبع وبعد أن يأكل لا يتحرك من مكانه يظل جالسًا شاردًا تتهدل ملامحه ويبدو حزينًا بعد أن كان يغنى قبل الطعام، هكذا كساب فى مساء ذلك اليوم، لم يتكلم ولا يبدو عليه أنه راغب فى الكلام أو اللعب، قلت له نغنى معًا.

- حج حجيج بيت الله

وآدى الزير وآدى غطاه

وآدى النبى إللى إحنا حداه

زام كساب، تمطى وانصرف، لم أجد ما أفعله عدت إلى دارنا، جلست بجوار جدى الذى كان يشرب القهوة فى تمهل، قال جدى مستفسرًا:

- ما بك؟

قلت:

لم يعودوا يأتون إلى الحارة

قال جدى فى تهكم:

لم تعد طفلا، صرت الآن تلميذًا فى المدرسة الكبيرة وعليك أن تحفظ دروسك وأن تتعلم حتى تصبح من ذوى المراكز المهمة.

قلت:

وهل تعلمت أنت فى المدارس

قال جدى فى حماس:

تعلمت فى مدرسة مثل مدرستك ثم ذهبت إلى مدارس أخرى حتى صرت مهندسًا قلت:

وما هو المهندس:

قال:

يبنى المنازل والكبارى والمراكب والعربيات ويصلح ما يفسد منها

قلت بسرعة:

لا أريد أن أصبح مهندسًا فأنا لا أحب كل هذه الأشياء قال:

ماذا تريد أن تصبح إذًا، قلت:

أدق الطبول مثل عم عبد الصادق أو أنفخ فى المزمار مثل شيحة الزمار ضحك وقال:

بل يجب أن تصبح مهندسًا مثلى

قلت:

وهل أبى كان مهندسا

قال:

- كان معلمًا ولكنه أراد أن يصبح تاجرًا

قلت وأنا أنصرف لأن الحديث لم يعجبنى

- إذًا سوف أصبح تاجرًا مثل أبى

ذهبت إلى جدتى وشكوت الفراغ الذى يحيط بى، أشعر أن هناك ما ينقصنى أو أن هناك مالا أستطيع فعله .. ذهبت إلى حجرتى وحاولت الرقاد بلا فائدة، تعودت الذهاب إلى المدرسة، ولكنى لم أستطع مجاراة زملائى، كانوا يكتبون ويطالعون ويناقشون، ولم أكن أنا أجيد الكتابة ولا القراءة وبالتالى لم أكن قادرًا على المشاركة .. جاءت توصية عمى الكبير لمدرسى المدرسة

بفائدة غريبة، فقد تحاشانى المدرسون، وخاصة عندما علموا أننى لا أعرف الكتابة ولا القراءة، حاولوا فى البداية ولكنهم اكتشفوا أننى دخلت المدرسة بنفوذ أبى وفلوسه، وكانوا يقولون إننى لست فى حاجة للتعليم لأننى من أسرة ثرية لا تحتاج أفرادها إلى الوظيفة، الدراسة باللغتين العربية والإنجليزية، أجلسونى لقصر قامتى فى الصف الأول، ولكن عندما يحضر المفتش فإنهم يضعوننى فى الصف الخلفى، .. كانت الدراسة تتم فى الأغلب الأعم فى الحديقة التى حول القصر، كنت أسعد بها كثيرًا، وخاصة أن دروس المواد الخاصة بالكيمياء ومثلها تتم فى الحديقة، وتعتمد على أن المدرس يشرح ونحن ننصت فإذا ما انتهى الشرح راح يسأل ونحن نجيب، وسعدت بهذه الدروس لأننى أصبحت أجيد الإنصات والفهم وبالتالى الإجابة بسرعة متجاوبًا مع الدرس، فالأمر لا يحتاج إلى الكتابة، وفرح بى أساتذة هذه المواد خاصة بعد أن أجبت بسرعة على أسئلة المفتشين .. الأمر الذى كان يحيرهم كثيرًا.

لم يكن لى شلة فى المدرسة، فأغلب التلاميذ أكبر منى سنًا وأكثر خبرة ودراية يجيدون اللعب التى كانت تعتمد على القتال والعراك، وعمل (المقالب) فى بعضهم البعض والأهم فى المدرسين ثم فى حضْرة الناظر واليوم الدراسى طويل للغاية، شاق على النفس لأننى لم أكن أمارس اللعب العنيف مع زملائى الذين يجيدون أشياء لا أعرفها، ويتغنون بأغان لم أسمع بها .. حاولت أن أصبح مثلهم، تجنبت الدخول فى عراك لأننى أضعف، دخلت معهم فى المناقشات حتى لو لم أكن أعرف فإذا كان السؤال من يقدر على

قطع هذا الفرع من الشجر بيد واحدة يقولون فلان من قرية كذا، وآخرون يقولون بل فلان من كفر كذا، أقول أنا فى حسم أنه بالتحديد (فلان) فهو الأقوى، وأصر على رأيى .. المهم أن أشارك، وأن أتكلم طالما أن اللعب يكون بالكلمات .. حتى جاء أحد الأولاد الذى يكبرنى فى السن بعدة أعوام وقال هم اكتشفوا سردابًا أسفل القصر، وأن هذا السرداب يحوى جثثًا كثيرة، خاف الأولاد، بعد عدة أيام تحول السرداب إلى موضوع جذاب لقصص كثيرة .. كان الأولاد يحكونها وهم يتضاحكون وأشعر أنا بالخجل، ولا أقدر على الدخول معهم فى هذا الأمر .. وذات يوم والعام الأول لى فى الدراسة على وشك الانتهاء، جاء ساعى المدرسة وكان من جيراننا، وقال هل ترغب فى رؤية السرداب، قلت دون تمهل وتظاهرا بالشجاعة .. نعم وعند الظهيرة وهى فترة نقضيها فى الاستراحة بعد تناول الغداء، قادنى إلى حجرة أسفل السلم كان بها الكثير من الأشياء المهملة أو المعطنة، وبدأ فى إزالة بعض محتوياتها حتى وجد حلقة لا تراها العين بسهولة، جذبها الرجل، انفتحت فتحة كبيرة تمكن الرجل من الدخول إليها ثم أخذ ينادينى، كنت خائفًا إلى درجة كبيرة، ولكن إعلان الخوف أمام هذا الرجل يعنى أننى جبان ولا انتسب لأسرة أنشأت هذه القرية وبنت ذلك الجسر، تقدمت وقفزت داخل الفتحة وجسدى كله يرتعد، كانت الظلمة سائدة، أشعل الرجل شعلة كانت معه، الأرض لزجة، بها ماء عطن سار الرجل عدة خطوات ثم توقف، سألته أن نعود لأن الرائحة لا تعجبنى، أعادنى الرجل وهو يقول إن السرداب يصل إلى البحر

حيث تقف مركب فى انتظار من يأتى، وأن الموتى فى هذا السرداب كثيرون .. عدنا إلى حجرة المهملات، جريت حتى ارتميت على حشائش الحديقة، تجمع الأولاد من حولى وأسئلتهم تعنى أننى رأيت كل شىء فى السرداب، وأنا الوحيد الذى يمكنه أن يحكى عنه .. لم أجب بشىء لأننى كنت متعبًا ولكنى شعرت بأهميتى وأنه من الممكن الآن أن أتساوى بهم أو أتفوق عليهم .. وبدأت أحكى ما شاهدته من الأحوال وخاصة حكاية المرأة التى تحولت إلى حجر .
ولولا نهاية العام الدراسى ما انتهت حكاية السرداب (وتوبى) هو كلب صغير مدلل ملك حضرة الناظر، كثيرًا ما قفز فى الفصل، وكثيرًا ما تضايق منه المدرسون، وكان موضوع لهو وسخرية التلاميذ، فالقرية مليئة بالكلاب الضالة ذات الأحجام والأشكال المختلفة وأيضًا مليئة بالكلاب الخاصة التى يملكها بعض الناس ولكنها جميعًا ذات أحجام تعود الأهالى عليها، أما (هذا التوبى) فكان أقرب إلى القطة الصغيرة منه إلى الكلب، وحظى (توبى) باهتمام التلاميذ وراحوا يألفون حوله الأغانى باللغة الإنجليزية .. ولم يكن هذا يرضى حضرة الناظر الذى كان يتولى تأديب التلاميذ بعصاته أو على الأقل وضع علامات التأنيب على صدورهم، فأطلقوا عليه اسم كلبه، وصار توبى هو الكلب، و(مستر توبى) هو حضرة الناظر .. وأصبحت فى السنة الثالثة، وأنا لا أجيد الكتابة، بل لا أعرفها مطلقًا ولم أكن سعيدًا بذلك، ولكن ما العمل .. قال كساب أن كل الأولاد لم يعودوا أولادًا أصبحوا رجالاً يعملون فى الحقول وخلف الحمير التى يسوقونها محملة بالتراب أو الزرع،

حاولت أن أخلق لى عالمًا وحدى. كنت أذهب مع جمعة الرجل الذى كان يعمل لدينا فى حقولنا، وأجلس تحت شجرة التوت، وأصنع مجموعة من الخراف والجاموس والبقر ثم أصنع كلبًا للحراسة، وأحيانًا أضع بعض رحيق الشجرة على تلك التماثيل الطينية، وأضعها فى الشمس أجلس وحيدًا، أتغنى

ـ محلاها عيشة الفلاح، متهنى والعيشة براح

أسمع صوت الساقية يزن فى أذنى .. أردت أنى أداعب العجل، أمسكت عصاه طويلة ووخزته فى رأسه، ابتعد قليلاً ثم اندفع نحوى بسرعة رفعنى على رأسه وقذف بى إلى ماء الترعة، رحت أغوص وأرى الظلام من حولى دامسًا، بعد قليل سحبنى (فوكس) كلبى (الوولف) جذبنى إلى شاطئ الترعة، أسرع جمعة نحوى وتجمع حولى أناس كثيرون، والكل يردد الحمد لله أنقذه الكلب .. انضم إلى فصلنا ولد جديد، كان شعر رأسه طويلا مسترسلا مثل شعر البنات، مدرس الدين، يشرح لنا (الصراط) الذى يفصل بين الجنة والنار، تحمس المدرس وتحشرج صوته وهو يصف النار وعذابها، والويل كل الويل لمن يسقط فى النار، ويتهدج صوته وهو يصف نعيم الجنة ويا بخت من يسقط فى الجنة، وهذا الصراط الرفيع الذى هو أرفع من شعر الرأس، كيف نعبره، لابد أن نسقط هب (الولد الجديد) واقفًا، وقال فى جدية متسائلا:

ـ لاعبى السيرك يسيرون على الحبال الرفيعة ولا يسقطون فهل يعبرون الصراط بسلام؟

كنا قد شاهدنا السيرك ولاعبى السيرك بعد موسم الفيضان الماضى، ورأينا سيدة سمينة تعبر سلكًا رفيعًا دون أن تسقط، أحدث الولد الجديد بسؤاله حالة من الهرج وانفجرنا جميعًا ضاحكين، وانقلب الموقف الذى كان يسيطر عليه المدرس إلى موقف ساخر بسؤال هذا الولد الذى جذبنى نحوه بسؤاله هذا، بعد انتهاء الدراسة توددت إليه، كأن عالمًا جديدًا انفتح أمامى، شعرت بالأسف على نفسى وأنا أتحدث مع تماثيلى الطينية من الجاموس والبقر، رحب الولد الجديد برغبتى فى صداقته، ذهبنا إلى منزله الذى كان والده قد استأجره من أبى، أعطانى مجموعة من الكتب الملونة والكراسات ذات الرسومات، فرحت بها، أخذ يقص علىّ أقاصيص جديدة:

ـ ذهبت الساحرة العجوز إلى الأمير الحزين، قالت له إنها تعرف سر حزنه وأوصته أن يذهب إلى الغابة، والغابة بها شجر كثير، وأيضًا بها أسود وثعالب ونمور وثعابين، أشار الولد الجديد إلى أشكال تلك الحيوانات المرسومة بالألوان الزاهية، وقالت الساحرة العجوز للأمير الحزين يجب أن تعبر الغابة بمفردك حتى إذا وجدت شجرة الجوز، ماهى شجرة الجوز، أشار إلى شجرة تشبه شجرة السنط .. رجوته أن يعطينى تلك الكتب الملونة لكى أتفرج عليها وحدى .. جلست إلى مكتبى بعد أن أغلقت باب حجرتى، ورحت أقلب صفحات الكتاب، كان هناك حصان مرسوم بعرض صفحة كاملة، وأسفل الصورة كلمة، أخذت أقليب صفحات الكتب وجدت أن هذا الكتاب به مجموعة من صور الحيوانات التى أشاهدها فى الواقع، هذا حصان أبيض وهذا حصان أسود، وهذا

جمل وذاك حمار أبيض، لاحظت أن كل صورة مكتوب أسفلها كلمة، تخيلت أن هذه الكلمة معناها اسم هذا الحيوان المرسوم، فإذا كان هذا (حصانا) فإن الكلمة المكتوبة هى حصان، وأول الكلمة حرف يرسم هكذا وينطق (حو)، رحت أقلب الصفحات فى شوق وسعادة لأننى اكتشفت طريقة لمعرفة القراءة، وكلما وجدت هذا الحرف الذى ينطق (حو) أضع أسفله خطًا، وهكذا .. أذن الفجر، قررت أن أصلى، ذهبت إلى المسجد فى رأسى تردد كلمة حصان فى المدرسة جلست فى أول الصف أخرجت كراسة وقلمًا، سخر منى المدرس حاولت متابعته بالكتابة لم أنجح كل ليلة أجلس إلى كتبى الملونة التى أستعيدها من الولد الجديد، كنا فى السنة الثالثة الابتدائية، لا أجيد إلا الإجابات الشفاهية بعد ثلاثة أشهر كنت أكتب ظل خطى قبيحًا، البنات فى حارتنا كثيرات بعد اختفاء الأولاد فى الحقول والعمل، تعالى العب معنا بدلا من الجلوس هكذا كأنك محضر المحكمة، أقول ضاحكًا، لا أعرف لعب البنات، قالت ناعسة نعلمك، قالت أخرى نحتاج إلى ولد لكى نلعب (عريس وعروسة) قلت لا أريد، قالت يجب أن تتعلم لقد صرت أستاذًا فى المدرسة وبعد عام أو عامين يزوجونك من كريمة بنت عمك، فى المساء جاءت إلى حجرتى وجذبتنى بشدة نحو بطنها، تقيأت، لم أفهم ماذا تريد، جرت ناعسة مذعورة وبقيت وحدى أبكى.

قالت جدتى:

- لا تجلس وحدك، البنات فى الخارج يرددن:

ـ خارجة من بيت أبوها رايحة بيت الجيران

تدق إحـداهن على غطاء الحلة دقًا رتيبًا، وهى تغنى غـرامـهـا براكب الدراجة الذى بهرها برشاقته، اللعب مع البنات غير مسل لهـذا ابتـعـدت لم أجـد مناصًا من الذهاب إلى أبى الذى فـرح بمشاركتى له وبعد عدة أسابيع كنت مساعدًا جيدًا لأبى أغرانى العمل معه كثيرًا .. ضاع كلب حضرة الناظر، راح الجميع يبحثون عن توبى لمستر توبى .. واختل نظام الدراسة، لأن الجميع يبحثون عن كلب الناظر، أصبحت مشغولا مثل الرجال الذين حولى، فى الصباح أذهب إلى المدرسة فإذا لم تكن هناك دراسة فى الفصل، أحاول أن أقرأ مالم أقرأه من قبل من كتب المدرسة أو أتدرب على الكتابة بعد الدراسة أعاون أبى .. كان التجار الذين يتعاملون مع أبى يجلسون إليه يتحدثون، أجلس وأستمع أحاول أن أفهم وأسأل فى أحد الأيام قلت لأحدهم:

أنت رجل طيب كريم ذكى ولكن: لاحظ لك تحمس وقال :

ـ صدقت

أعدت السؤال على كل من يأتى عند أبى فى ذلك، نفس السؤال وأتلقى نفس الإجابة، بعد يوم كامل سألنى أبى ماذا تفعل، قلت إنهم جميعا قالوا إن لاحظ لهم إذًا أين ذهب الحظ، أخذت السؤال إلى الولد الجديد فى المدرسة، قال :

ـ وهل تؤمن بالحظ .. بوجود حظ

لم أجب.. العمل مع أبى يأخذ منى وقتًا وجهدًا كبيرًا، ولكن رغبتى فى اللعب تجعلنى أهرب من العمل وأحاول الوصول إلى أولاد يمكن مشاركتهم فى اللعب، قالوا نذهب إلى البحر، عرفت أن اسمه (النيل)، قال هذا مدرس الجغرافيا، ذهبنا، كان (هارون) هو القائد، وكان أكبرنا سنًا وجسمًا، حمل معه عجينة غريبة، أخذنا قارب عم مغاورى السمّاك ركبنا وجدفنا حتى وسط النيل .. بدأ هارون يرمى قطعًا من العجينة التى معه، بعد قليل رأينا الأسماك تقفز إلى أعلى خارجة من الماء وهى تدور فى دوائر وكأنها ترقص، ثم ترقد على سطح الماء، وكلما قذف هارون بقطع العجنية كلما ازدادت كمية الأسماك التى تفعل هذا، قفز (جودة) إلى الماء، وبدأ يجمع السمك ويضعه فى المركب، ونحن نصفق فى سعادة إنها أسماك كبيرة نوعًا ما، ما كاد جودة يجمع بعضها حتى رأينا ثعبانًا كبيرًا يشق الماء بسرعة، رافعًا رأسه إلى أعلى قادمًا نحونا، صرخنا جميعًا، قفز جودة مرعوبًا إلى المركب إحنا نجدف بقوة متجهين نحو الشاطئ الذى لاح بعد أن كان الزعر يتملكنا، وأخيرًا صرنا فوق الجسر، وتفرقنا بسرعة، ولا أحد يتكلم وكأن الثعبان لا يزال يطاردنا بشراسة..

.. أصبح صعبًا الدخول فى نطاق شلة فى المدرسة، كانوا أكبر منى سنا، وألعابهم تتسم بالغموض، أحيانًا كنت أشترك ولكن بعد قليل أكتشف عدم قدرتى على مباراتهم، ولم تفلح طريقتى فى إثبات الوجود بمداراة جهلى وتصريحى الدائم بأننى أعرف، أما

أولاد الحارة والشارع فقد انشغل كل منهم بعمل ما، وجاء أولاد آخرون أقل منى سنًا، وقررت البحث عن أصدقاء ..

قابلنى أول مرة فى طريقى إلى المدرسة، قال إنه يدرس فى مدرسة البندر، وأخذ يقص علىّ أخبار وأحوال مدرستهم الأميرية وأيضًا بعضًا من أخباره، تقابلنا بعد ذلك عدة مرات، قال إنه لا يجيد مصاحبة شلة أو جماعة، وأنه يعرف ألوانًا من اللعب التى لا تحتاج إلى عدد كبير، وجاء بالشطرنج وأخذ يعلمنى، أصبحت لعبة الشطرنج هى المتنفس لنا، إنها لا تحتاج إلا لرقعة الشطرنج الخشبية ومجموعة عساكرها الخشبية، ويمكن ممارستها فى المنزل أو على شاطئ النيل تحت ظل شجرة التوت، وعندما دخلت إلى حجرته الخاصة بمنزله وجدت كتبًا كثيرة، شعرت بود شديد للصديق (رفعت) .. الذى كانت له نفس الميول التى لى نذهب سويًا إلى شاطئ النيل ونحلم، يردد كل منا على مسامع الآخر أحلامه وأمانيه أحلامنا تدور حول اختراعات نافعة للبشرية، أدوية طبية نكتشفها، معدات تجعل الحياة سهلة، نرسم على تراب الجسر رسومات لآلات سوف نخترعها، فى المساء كنت أعاون أبى حتى جاءت السنة الرابعة، نهرنى عمى الكبير.

لماذا لا تذاكر مثل بقية زملائك .. إنهم يسهرون طوال الليل فى المذاكرة

قررت الذهاب مع زملاء الفصل إلى منزل أحدهم للمذاكرة، جلسنا وكل منا معه كتابه، جاءت أم زميلنا وقدمت لنا الحلوى وهى

تدعو لنا بالنجاح والفلاح، كما دعت الله أن يجعل قلوب الممتحنين رقيقة علينا، وأن نجيب على الأسئلة بطريقة صحيحة، استغرق دعاء أم زميلنا زمنًا كنا خلاله نلتهم الحلوى بشراهة، سوف نمتحن للحصول على شهادة الابتدائية، ومن ينجح يمكن أن يعمل موظفًا بالحكومة وأن يصبح ذا شان عظيم .. لهذا طالت دعوتها، وبعد أن فرغوا من أكل الحلوى، راحوا، يخلون (المندرة) من المقاعد والموائد وهم يتأهبون للعب (الكرة الشراب)، صعدت أنا إلى إحدى النوافذ وجلست على حافتها العريضة ورحت أتأمل الراغبين فى الحصول على الشهادة الابتدائية، ودارت الكرة الشراب وانهمك الزملاء فى اللعب، أما أنا فكنت أتفرج قليلا وأقرأ فى الكتاب الذى معى بعض الوقت، حتى جاء صوت مؤذن الفجر، خرجت جاريًا، ولم أعد إلى المذاكرة مع هؤلاء مطلقًا وجاء الامتحان، وأعلنت النتيجة، وجاءنى عمى الكبير وقال:

- رسبوا جميعًا

أرى بريقًا فى عينيه، يشع فرحًا، فقلت:

وماذا عنى؟

قال وهو يتلقفنى بين أحضانه :

- أنت الناجح الوحيد من المدرسة كلها

أحسست أنه هو الذى نجح ولست أنا، هو الذى فاز بالابتدائية ولست أنا .. أتمنى أن أكون فى هذا العالم ناجحًا، وان أفرح بما

يحدث، وأن أشارك فعلا فيما يحدث .. أخذتنى جدتى فى صدرها بحنان شديد، قالت :

- اعلم يا ولدى أنك غير هؤلاء الأولاد، وأن نجمك فى الطالع وأن اليوم القادم أفضل

# الفصل الثالث

جاء الفيضان وذهبت مع أبناء أخوالى إلى البحر، وتنادينا لتتماسك الجسور، ولم يعد البحر بحرًا، صار نيلاً، الماء الرمادى يعوى كأنه ذئب مفترس، لم نعد أطفال الأمس صرنا نغوص فى الطين ونحمل الحجارة لنسد الثغرات فى الجسر، يومًا بعد يوم، وليلة بعد ليلة، والماء يتدافع، نصيح فى الليل حتى لا ينام أحدنا كانوا يشفقون علىّ لأننى لم يسبق لى الوقوف أمام الفيضان، ولكنى أرغب فى المشاركة، قالوا إن المدرسة الأميرية الثانوية لن تقبلنى لصغر سنى لم أكن مهتمًا بنوعية المدرسة، التحقت بالمدرسة الخاصة، وتلفت حولى فى الفصل وجدتهم جميعًا من الشباب والرجال، تحدث زميلى وجارى فى الفصل عن زوجته وتحدث زميل آخر عن أنواع المسدسات والأسلحة وقال إنه يمتلك مجموعة من البنادق .. لم يكن أمامى إلا أن أستغيث بعقلى، زملائى جاءوا من قرى وبلاد متفرقة وإن كانوا جميعًا من إقليم واحد، ويبدو أنهم من أبناء أثرياء الإقليم، لا يهتمون بالدراسة بقدر اهتمامهم أن يكونوا مجرد طلبة، مظاهرات الطلبة متواصلة كل يوم تقريبًا، أجدت

الخطابة فى بداية كل مظاهرة طلابيــة، كنت أملك الصــيــاح بالعبارات الرنانة الوطنية، يندفع الطلاب إلى المدرسة الأميرية، ثم إلى بقية مدارس عاصمة الإقليم، يشتبك العسكر بالطلاب، تحدث مــصــادمــات، ينجلى الموقف عن إصــابة بعض الطلاب وقلة من العسكر، كنت أخاف الاصطدام، يساعدنى جسدى الصغير وعمرى الطفولى فى الهرب من العسكر الذين كانوا يساعدوننى فى عبور الحواجز لأصل إلى الشارع .. كانت المظاهرة حاشدة، مئات من الطلاب ومثلهم من الطالبات والأعلام الخضراء ترفرف، حملنى الطلاب لكى أخطب فيهم .. اليوم حرام فيه العلم، والاستعمار والطغيان همـا سـر البـلاء .. انفعلت ورحت أرص الكلام رصًا، والويل لكل خائن، ولو لم أكن مصريًا لوددت أن أكون .. يحيا كفاح الشعب، يسقط الاستعمار وعملاء الاستعمار وضربنى العسكر على جسدى بالهراوات، صحت فى ألم أمسك بى كبيرهم ورفعنى إلى أعلى، قال فى غيظ:

- لو كنت كبيرًا لوضعتك فى السجن

بصقت على وجهه فى وحشية لشعورى بالمهانة، صفعنى بقسوة ودفعنى لكى ابتعد ولكنى لم أفعل ورحت أسبه فى تحد، أمسك بى مرة أخرى رأيت الخوف فى عينيه، قلت فى غضب:

- أنت خائن وليس لك أم

راح يضربنى بقسوة، كان الألم قد زال، والإحساس بالمهانة يجعلنى أقاوم الألم وأيضًا التخلص من قبضة يده، شعر هو بالعجز

تركنى وهو يلهث، ركلته فى قدمه بعنف، جريت وإحساس بالمهانة يعترينى، ذهبت إلى عمى فى المدينة، لم أجده، شكوت لأبن عمى قال وهو يضحك:

- ولا يهمك

كيف لا يهمنى، ضربنى وقذف بى إلى الأرض، وبعد ذلك ولا يهمك .. كان ابن عمى قد ترك الدراسة لكى يعمل فى صناعة الملابس، كان كل شيء عنده لا يهم، أحضر لى الشاى والكعك ثم أخذ يحدثنى عن مشروعه الذى بدأ به بالفعل، اشترى الماكينات وضع مجموعة من الموديلات كعينة، خلال هذا قام بتفصيل بنطلون لى بدلا من ذلك الذى تمزق خلال معركة ضابط الشرطة، ارتديته وقال:

- أحذر حتى لا يعرف والدك .. إن العراك مع الحكومة ليس أمرًا سهلا

تنبهت إلى كلامه، خشيت أن يبلغ أحد زملاء المدرسة من أبناء البلدة أبى أسرعت بالانصراف وأنا أفكر فى حكاية أحكيها له تبرر تخلفى عن الموعد المعتاد لعودتى من المدرسة .. قالت أمى إن أبى سافر إلى، المدينة لإحضار تجارة له، انتظرت أبى ولكن اليوم مر دون أن يحضر بدأت جدتى تعبر عن قلقها تحولت الدار إلى مركز التوتر والقلق، خرجت أنا إلى ساحة القرية رأيت رجلاً قادمًا من محطة القطار أسرعت إليه وإحساس بالخطر يتملكنى، قال الرجل وهو يحاول أن يتماسك:

- نقلناه إلى المستشفى وهو يسأل عنك

لا أدرى كيف وصلت إلى أبى بالمستشفى الخاص، كان الطبيب قد أنهى عمله وظهر لى أبى تغطى جسده كله حتى رأسه بالشاش الأبيض همس الدكتور فى أذنى، :

لا تجعله يتكلم .. فى الصباح سيكون أفضل

بعد ساعة جاءت الأسرة جميعها، وتحلقوا حول فراش أبى، جدى كان أكثرهم لوعة وحزنًا، خالى الكبير قال :

- كله خير .. إذا كانت التجارة قد ضاعت فإن ولدنا سليم بإذن الله

نظرنا جميعًا نحو أبى الراقد الذى لا يتكلم إلا بضع كلمات، قال عمى:

- سنحضر له أفضل الأطباء .. يجب أن يشفى سريعًا

.. عرفت من يومها أن الحياة صعبة، وأن الحصول على قوت أسرة كبيرة ليس أمرًا هينًا، كنت أذهب إلى المدرسة لأعود لأعمل بدلا من أبى، ولأننى كنت أعرف أسرار عمله فقد اندفعت فى أداء عمل أبى بقدر استطاعتى، وشعرت أن الأسرة كلها، بمن فيهم جدى يلجأ إلىّ فى كل شىء، كان عقلى يغلى كيف أدبر أمر أخوتى وأعمامى وأخوالى، كان أبى يفعل هذا وهو دومًا يبتسم وكنت أظن أنه لا يعمل فى التجارة بل يلهو بها، ولكن ما إن أصبحت فى مكانه إلا وعرفت أن الأعباء ثقيلة ومرهقة .. ذهبت، كما أفعل كل يوم،

لزيارته فى المستشفى أستمع إلى تعليماته، كان وجهه الجميل قد مزقته قطع الزجاج، اصطدم بسيارته فى شجرة كبيرة تهشمت مقدمة السيارة وأصيب هو بالعديد من الجروح، ولما حاولت أن أعرف سر اصطدامه بالشجرة وهى بعيدة عن الطريق، علمت أن السيارات التى كانت تحمل تجارته انقلبت فى الماء، وعندما تلفت خلفه ليرى ما حدث كانت الشجرة هى الأسبق واصطدمت بها سيارته التى كان يقودها بنفسه . والتجارة كثيرة وغالية وضاعت فى الماء .. ولابد أن يعيد مثلها لأصحابها أو ندفع لهم ثمنها . كان الأمر صعبا حاولت أن أتحمله، وأخيرا عاد أبى إلى العمل .. وعدت إلى حجرتى أداوم على القراءة ونخرج للنزهة مع صديقى رفعت، ولأن والد صديقى معلم فى المدارس وله راتب شهرى معقول، فهم لا يعرفون تقلب الأحوال واختلاف الأرزاق بين يوم وآخر ولم نكن نناقش هذا الأمر معًا، جاءت الإجازة ونجحت كما نجح رفعت، وبدأنا نخطط فى فعل أمر ما خلال تلك الإجازة، مع أننى أعمل مع أبى أكثر من نصف اليوم، وأبى يترك لى بعض الوقت للهو، وكأن هناك اتفاقًا بيننا، كل منا له حق اللهو بطريقته على أن نشترك معًا ونتعاون فى العمل وخاصة أننى ازددت خبرة بالتجارة وأثبت جدارة فى العمل بها .. قال رفعت:

ـ أريد أن أرى الجنِّيات؟

قلت متظاهرًا بالشجاعة

- أنا لا أخاف

كنت أخاف منها دومًا، أحيانًا تأتينى وأنا نائم، وأحيانًا أراها فى المقابر التى تطل على حجرتى، قررنا الذهاب إلى أشهر الأماكن التى تتواجد بها جنيات وفقًا لأقوال الناس فى قريتى، فى الليلة الأولى ذهبنا إلى جميزة عم مبروك وهى فى منطقة زراعية كثيفة الزراعة مظلمة دائمًا، بل إنها بالنهار تكون مظلمة أيضًا من كثرة الأشجار، ذهبنا بعد منتصف الليل، كل منا يحمل كشافًا يعمل بالبطاريات، ونحمل أيضًا بعض الإبر المدببة، لأنهم قالوا إذا رأيتم الجنى ادفعوا إبرة فى جسده مهما كان شكل هذا الجسد، وقالوا لنا إن هناك من فعل هذا فى جنى على شكل حمار فظل الجنى على حاله الحميرية حتى الآن .. تسللنا نحو الجميزة، دخلنا أسفلها، حاولنا البحث لم نجد شيئًا، جلسنا على أمل أن نرى الأرانب أو القطط أو الحمير كما أخبرونا عن الأشكال التى تظهر بها الجنيات، مضت عدة ساعات ولم نلمح شيئا، الظلام دامس ولا أثر لعيون حمراء تبرق، ولا عيون زرقاء تضوى، ولا صوت إلا صوت الهواء الذى يحرك أوراق الأفرع العالية . أذّن الفجر وعدنا إلى دورنا على أن نأتى فى الليلة التالية، ونكون أكثر انتباهًا وتكررت زيارتنا لشجرة الجميز والنوم تحتها حتى كدنا نيأس من رؤية شىء غير عادى، وذات ليلة لمحنا شبحا يحاول التسلل خارجًا من أسفل الجميزة، واندفعنا نحن الاثنين مرة واحدة تجاه هذا الشبح حتى أمسكنا به، ونحن نسمع صوت بكاء حاد لمرأة، تذكرنا (النداهة) وهى الجنية التى تظهر على شكل امرأة جميلة، ضحك رفعت وقال:

- يجب أن ندفع الإبرة فى جسدها

وما يكاد نفعل حتى سمعنا صراخًا مؤلمًا حادًا صادرًا منها، أضأت الكشاف الذى أحمله، كانت مجرد فتاة سمراء ليست بالجميلة رأيت دموعها، وارتعاش رأسها، وتوسلاتها الحزينة بأن نتركها فى حالها، ولم نفعل إلا بعد أن نطقت باسمينا نحن الاثنين لم نجد أمامنا شيئًا ولا نداهة ولا جنية، مجرد فتاة نعرفها تعمل فى بيوت الناس، ونسمع أن سمعتها ليست محل شبهات، اجلسناها ونحن نطيب خاطرها، ولكن لم نتركها إلا بعد أن أخبرتنا بما كانت تفعل، إنها تتقاضى مقابل معاشرة الرجل للمرة الواحدة عشرة قروش وأنها تقابلهم هنا كل ليلة، عرضت أن نعاشرها بلا مقابل رفضنا وتركناها تذهب، وقررنا عدم العودة إلى هذه الشجرة التى كانت أسفلها جنية من الإنس صدمت أحاسيسنا الفتية التى لم تكن على خاطرنا ..

فى الليلة التالية لما حدث، ذهبنا إلى شاطئ النيل، عند البقعة التى كان الناس يذكرون عنها أنها منطقة النداهة والتى تأكل كل شهر، رجلا من قريتنا، وقالوا إن آخر من أكلتهم عم خميس خفير شونة الحبوب، وكنا نعرف عم خميس لأن الشونة تقع فى الطريق إلى محطة القطار الذى نستقله كل يوم للذهاب إلى المدرسة فى البندر، وشعرنا أنه يجب الأخذ بثأر عم خميس فهو رجل طيب ولا يعرف الشر ولا يمارس الأفعال الشريرة، وأنه كان يحرص على أداء فريضة صلاة الفجر ويذهب ليستحم قبل الصلاة فى النيل .. وما إن انتصف الليل حتى كنا بجوار النهر نحمل الكشافات والمدى وبعض المواد ودستة كاملة من الإبر الصلبة .. تعالى أيتها النداهة

اللئيمة، إذا كان عم خميس قد ساقته براعتك للغرق فى النيل فإننا أكثر منك ذكاء، وهذه البقعة من النهر (الدوامة) لأن الماء فيها يجرى على شكل دوائر متعاقبة مما يجعل السباحة فيها أمرًا مستحيلا، لن نهبط إلى الماء، لن نستمع إلى حديثك، ولم تحضر النداهة ليلة بعد ليلة، أتعبنا السهر وكادت أيام الإجازة تمضى، وشعرت أنا بالإرهاق لأننى أعمل بجوار أبى بالنهار وأتطوع ليلا بالبحث عن النداهة والجنيات، بدأت أشعر بأعراض غريبة فى صوتى وجسدى وأحيانًا أرتعش وقلبى يخفق بشدة، قرأت قصصًا كثيرة عن الحب وما يفعله الحب فى الإنسان، ولكن لم يحدث هذا لى .. قررنا أن نجعل من هذه الليلة آخر غزواتنا لاكتشاف الجنيات .. اقترينا أكثر من منطقة الدوامة بالنهر، جلسنا كل منا اختار منطقة بعيدة عن زميله واتفقنا على أن نتبادل الإشارات بالكشافات الضوئية .. بعد منتصف الليل بكثير، غافلنى النوم لحظات وجدت ذراعًا قوية تقبض على كتفى، صرخت رعبًا وأنا أتصور أنها النداهة، سمعت صراخ رفعت هو أيضا، ثم سمعت أصواتًا خشنة تأمرنا لكى نقف، لم أر شيئًا، وجهى ملفوف بعباءة ثقيلة كريهة الرائحة، سحبونا إلى مكان ما، سمعنا أنهم سوف يطالبون أهالينا بمبالغ مالية، قال أحدهم:

إنه ابن الكبير.. ولن يتأخر عن دفع المبلغ المطلوب

لا أدرى إذا كانوا يقصدوننى أم يقصدون رفعت فوالده أيضًا كبير عائلات الحجازية جميعهم، وحاولت أن أتخيل وجوه وملامح

هؤلاء الذين يتحركون حولنا ويتحدثون ويتعاركون بخشونة شديدة ويضحكون أيضًا بصوت عال وبطريقة غير عادية، حاولت أن أتبين صوتًا منهم كان أقرب الأصوات إلى سمعى وأظن أننى سمعته من قبل، مرت ساعات كثيرة ونحن مقيدون والجوع تسلل إلى بطوننا، وإحساس بالغم والقرف من هؤلاء الأجلاف الذين يعاملوننا بقسوة .. سمعنا همسًا، كلمات ثائرة وتهديدًا بالقتل لنا ولأسرنا .. من هذا الذى يمكن أن يهدد أسرتى، إن القرية جميعها أبناء أعمامى وأخوالى وأبناء عماتى وخالاتى، هل يقدرون على كل هؤلاء، ومع هذا فأنا خائف لأنهم قيدونى ولا أملك أن أفعل شيئًا أو حتى أمسهم .. وتمر الساعات يقدمون إلينا خبزًا جافًا وبعض الماء .. يبدو أن الظلام هل وجاء الليل، وجاء رسولهم بخبر غير سار لهم، سمعت أن أبى رفض وهدد بحرق كل ما حول القرية وقتل كل الغرباء ومنع دخولهم أو خروجهم، كان الرجل يتحدث وهو يرتعش وهو يقول: إن أبى، يهددهم بقتل رجل مقابل شعرة من رأسى تقطع، أعجبنى رد أبى وشعرت بالفخر وأنا أعلم مدى مكانتى عنده وعند أسرتى، وعلمت أن عمى الكبير قرر تفتيش كل المناطق المحيطة بالقرية وحرق كل المزروعات، بدأ رفعت يبكى وأنا أسمعه وهو الذى كان متماسكًا جعلنى بكاء رفعت أكثر خوفًا وجزعًا، حاولت تخليص رأسى من هذا الغطاء الثقيل لم أستطع ونالتنى ضربة بعصا غليظة على رأسى، حاولت النوم كما حاولت أن أتخيل أشياء عديدة .. تذكرت أمى وقررت أن أحاول تعويضها عن عدم الاهتمام بها، جدتى تجلس بجوارى تبتسم، جوعان أنا، تضع لى

الكعك المحشو بالملبن أو العجوة، أحاول أن أعمل بنصيحتها وآكله بدلا من هذا الملفوف الذى اشتريه من بائع الفول عبارة عن رغيف طرى من الخبز يضعون عليه الصلصة الحمراء ثم قطع قليلة من الطعمية ويلف الرغيف لكى يشكل لفافة متماسكة يقبل عليه التلاميذ، حار ويلهب الفم، ومع هذا نقبل عليه إقبالا شديدًا وأترك الكعك التى تصنعه جدتى وعندما أعود فى الظهيرة اضطر لإعطائه لزملاء القطار حتى لا أعود به إلى جدتى، عندما أدخل إليها وتكون جالسة تشرف على خبيز العيش، تدس لى رغيفا ساخنًا مع قطعة كبيرة من الزبدة ثم تهرسهما فى الطبق، تقدمه لى ساخنًا آكله فى استمتاع، وتبتسم جدتى وهى تقول :

لم تأكل الكعك .. أليس كذلك

أسكت، لا أحب أن أكذب على جدتى، أحبها، ولا أشعر بالأمان إلا بجوارها، تحكى لى حكايات جميلة عن جدودنا، أحب سماع قصة سيدى سالم.. إنه جد الجد، ومع هذا فإن سيرته لا تنقطع وأعماله يتحاكى بها الناس، دومًا تسمع ماذا فعل جدى سالم فى (هوجة البحر) وماذا فعل عندما وقف عرابى أمام الإنجليز، بل ترى الناس يصمتون ويستمعون فى انتباه كامل عندما تأتى سيرة جدى سالم عندما وقف فى وجه الخديو سعيد، وجعل رجال الخديو يتراجعون عن إقامة جسور السكة الحديدية التى كانت ستشق القرية بطولها لكى تصل إلى المدخل الرئيسى للقصر الكبير الرابض على النهر، واضطر رجال الخديو إقامة السكة الحديدية

خارج القرية وعلى أرض (الوسية) وهى أملاك الخديو، وشعر الناس بالارتياح الشديد عندما تراجع رجال الخديو أمام قوة سيدى سالم، بل إنه وضع عصاه فى أول الطريق إلى القرية حتى لا يقتربوا من القرية لمجرد رؤية العصا، وهدد بأن العصا سوف تضرب كل من سولت له نفسه بدخول القرية .. أليس هو جدى، زام الرجل الذى يبدو أنه يجلس بجوارى، حاولت أن أتخلص من الوضع الدقيق الذى أنا فيه .. ساد السكون دعضنى البرد بشدة، أتمنى أن أرقد على الفرن بجوار جدتى، عندما يكون لدينا (خبيز) ويعمل الفرن طوال النهار يكون بالليل لدينا أصناف كثيرة من تلك التى تحتاج إلى الطهو فى الفرن أهمها (الأرز المعمر) وطواجن القلقاس باللحم الضانى، وفوق ذلك كميات من البطاطا المشوية والفول السودانى، بعد العشاء نجلس جميعًا لنأكل الفول السودانى المحمص الساخن، أين أنا من كل هذا .. يا سلام ياجدتى كم أفتقدك الآن؟ وأفتقد أمى، ملعون أبو الحبس ملعون هذا الرجل الذى قيدنى بهذا الشكل..

سمعت طلقات رصاص متتالية، ثم دفعات كاملة من الطلقات، أصوات مختلطة، وصريخ، ونداء مكروب من رجل يبدو أنه مصاب، ثم حل الصمت وسمعت صوت صراصير الحقول، وصوت نداءات عاجلة وسريعة، حاولت التخلص من قيدى، شعرت بالخوف ينتابنى الآن بشدة، قرأت بعض آيات من القرآن، عندما أخرج من هذه المحنة سوف أتزوج، تذكرت ليلى التى أحبتنى، كان عندى رغبة شديدة فى تقبيلها، تذكرت مداعبة البنات فى شارعنا . مرة أخرى

عاد إطلاق النار، تتابعت الطلقات التى تبدو قريبة من أذنى، كان جسدى يرتعد، مرت طلقة بجوار رأسى، أخذت تطن فى دماغى فترة خلتها دهرًا، اقتربت مجموعة من الأقدام التى تهرول وتتدافع، سمعت صوت أبى، زغرد الفرح فى قلبى، كنت أتمنى أن أنادى:

أبى .. أبى .. أنا هنا

لم يخرج صوتى، ساد السكون، وكلى آذان صاغية، أود سماع صوت أبى، أخيرًا لاح الفجر، وطل وجه أبى أمامى، واندفعت إلى صدره باكيًا مع بكائه، وعشرات العيون تحلق حولى وتحدق فى وجهى، قال عمى الكبير فى حسم:

- يجب أن نعود إلى دارنا

أصدر أبى أوامره السريعة بإخلاء المكان وحملى ومعى رفعت إلى الدار والإرسال فى طلب الطبيب .. علمت أن الرجال الذين اختطفونى تم قتلهم، وحزنت لأنه كان من بينهم عم جمعة الذى كان يعمل لدينا فى الحقول.. كنت خائفًا من أبى عندما يسألنى أين كنت عندما هاجمنى اللصوص، وماذا كنت أفعل، هل أقول له كنت أصطاد الجنيات وأجرى وراء النداهة، سوف يسألنى بالتأكيد، وربما سأل رفعت، ولكن الحمد لله لم يسألنى، كان ملهوفًا على سلامتى يريد أن يطمئن، قال الطبيب إننى أحتاج للراحة والطعام الجيد، وكلمة الطعام الجيد معناها اللحم بكل أنواعه وأشكاله، والحساء والثريد، والأرز، لم أكن أطيق طعم اللحم، حاولت جدتى أن تطعمنى اللحم ولكن على الرغم من حبى لها ورغبتى فى

إطاعتها كنت أرفض تذوق اللحم، أفضل أكل البيض وشرب اللبن .. بعد عدة أيام نسيت أسرتى حكاية الاختطاف هذه، وأيضًا مسألة العناية بإطعامى وراحتى، ورحت أعمل فى تجارة والدى، أدور معه فى القرى لشراء القطن لأننا كنا فى موسم جمع القطن، أذهب مع أبى نجوب القرى أحيانًا، ولكن فى أكثر الأحيان كنت أذهب وحدى، أحدد السعر، وأحضر الوزن، وأكتب ورقة بالثمن لأعود به بعد توريد القطن إلى المخازن، عمل مرهق و لكنه مسل جدًا ويشعرنى بأهميتى ووجودى كرجل أعمال مثل الخواجة (ماركو) الذى كان يعمل معنا فى تجارة القطن، ويستلمه منا لإرساله إلى الإسكندرية حيث يصدر، فى ليلة ذهبت إلى دار أحد الفلاحين لتسليمه أثمان محصوله من القطن، وأراد الرجل أن يكرمنى فأمر بصناعة براد الشاى الأسود المعتاد، وشربت الشاى، وشعرت أن طعمه مرًا، حاولت تبرير مرارته بأنهم وضعوا شايًا كثيرًا فى البراد، بعد عدة رشفات شعرت أن فمى يكاد يتحجر وأن رأسى تدور، أبعدت الكوب عن فمى، ورأيت الرجال من حولى صاروا عمالقة، انتابنى الخوف الشديد، وقفزت إلى الشارع مرعوبًا، لا تزال أحداث الخطف تدور فى رأسى، جريت بأقصى سرعة فى اتجاه بلدتنا التى كانت بعيدة إلى حد ما، جريت وجريت ولكن الرجال يلاحقوننى وهم يصرخون، لم أتلفت خلفى وصرت أجرى بأقصى سرعة، لا أدرى كيف عرفت الطريق، ولكن الرعب الذى كان يشملنى يدفعنى إلى الاتجاه نحو دارنا، دفعت الباب فى لهفة، وجدت أبى أمامى اندفعت نحوه، استقبلنى فى اضطراب.

لم أشعر بشىء إلا بعد أيام، قالوا إن الطبيب قال إنك شربت مواد مخدرة .. وأن الجرى كان من أسباب تخلص جسدك من هذا المخدر، تذكرت الشاى المر، وتذكرت الرجل الفلاح الذى كنت فى داره أعطيه أثمان قطنه، ودارت فى رأسى أسئلة حول هدف هذا الرجل لماذا فعل بى هذا، .. قالوا إن أبى عاتب الرجل بشدة الذى أقسم أنه لم يقصد إلا تحيتى بكثير من الكرم، وتصور أن قطعة المخدر التى دسها فى الكوب ستزيد سعادتى، وسمعت كلامًا كثيرًا، ولم أفق من هذا كله إلا بعد أن ذهبت إلى المدرسة وعدت إلى فصلى وزملاء الفصل الذين لا تعنيهم الدراسة فى شىء فجميعهم مشغولون بأمور البنات وأفلام سينما البندر، وأحيانا يتحدثون عن بعض الأمور التى تخص كل منهم عن بلدته المدفونة وسط الحقول والغيطان، لم أكن فى البداية أفهم ما هى أهمية القبلة التى يسرقونها من البنات ويتباهون بها، بل لم أكن أفهم أحاديثهم التى يتناولون فيها علاقاتهم المتعددة مع البنات وسط الغيطان والنشوة التى تبدو على عيونهم وهم يحكون بالتفصيل عن تلك اللحظات التى يقضونها فى خلوة مع البنات .. وكل منهم يتبارى فى شرح تلك اللحظات، حاولت سؤال زميلى المجاور، نظر نحوى فى دهشة وقال:

- أنت لا تزال طفلا .. سوف تعرف فيما بعد

تركنى وهو يرجو أن ينام خلال حصة العربى، هذا العام بدأت أعرف أسرار هذه الأحاديث، كنت أستحم وحدى فى حجرتى وفجأة شعرت بتقلص عضلاتى جميعا، وخرج منى سائل أبيض بعد

ذلك شعرت بالراحة والخجل، وأسرعت أرتدى ملابسى، بعد هذا رفضت بقوة أن يساعدنى أحد خلال حمامى اليومى، وكانت من عادة جدتى أن تشرف على حمامى وتأمر إحدى البنات بمساعدتى، وكنت ألهو خلال هذا الحمام وأتعمد عدم طاعة جدتى، ولكن بعد ذلك لم أسمح لأحد بالدخول خلال الحمام، وانتابنى الإرهاق والخمول وبدأت أضيق بكل شىء، لا أحب قطتى التى تنام بجوار رأسى، كنت أرفعها فى غلظة بعيدًا، وأضرب الكلب حتى لا يقترب منى، وأخشى مواجهة أمى وجدتى وأيضًا أبى، كان أبى يحاول أن يصادقنى وأن يتقرب منى ويداعبنى بل يصر على اصطحابى فى نزهات فى مدينة البندر، ولكنى أصبحت أتحاشى الانفراد بأبى، فى المدرسة أحاول مصادقة زملاء الفصل ولكنى لا أملك حكاياتهم، قال لى رفعت :

ـ لم تعد كما كنت .. يبدو أن حادث الاختطاف قد أتعبك حتى صار عندك إحساس المنبوذ هكذا، لا أدرى، .. فجأة وقعت فى الحب، يبدو أننى أقع كثيرًا فى العديد من الكبوات، ولكن كان الوقوع فى الحب سهلا حتى إننى لم أشعر به فى البداية، .. لكن عندما انتهيت من استلام السندوتش اليومى من البائع استدرت فإذا بعربة حنطور يجرها حصان بنى اللون يتوقف أمامى مباشرة ثم تهبط منه ملاك بوجهه الأبيض وشعره الأسود اللامع يدور حول رأسه مثل هالة القديسين، تهبط بقدمها اليمنى، ثم تتوقف لحظة كانت كافية لأن أرى عينيها وبريقًا مثل شعاع القمر يسقط فى عينى، صارت كلها فى عينى هبطت الدرجة الأخيرة، وضعت حقيبة

المدرسة بين ذراعيها واحتضنتها برفق ثم مضت، سقط (السندوتش اللف) من يدى، لم أهتم، نظرت حيث مضت إلى مدرسة البنات، ظللت أراقبها حتى دخلت من باب المدرسة، عدت إلى نفسى مهللا، قضيت يومًا سعيدًا، قررت الاحتفال بهذا الحدث ولا أدرى ما هو مع نفسى، خرجت من المدرسة مبكرًا لم تكن بى رغبة لكى أسمع شجار زملائى بأصواتهم الخشنة، ذهبت حتى النهر، سرت حتى شاطئ النهر، وهناك جلست، كان كتاب (فيكتور هوجو) معى قرأت عدة صفحات، ولكن حاصرتنى عيناها، أحاطتنى، أخذتنى، عدت إلى دارنا، صعدت إلى السطح وأخذت أقرأ أشعار شوقى، غنيت الأشعار بصوت عال، فى الصباح ذهبت مبكرًا إلى نفس المكان، لم أشتر السندوتش اليومى، أقبل الحنطور، هبطت درجة وتطلعت نحوى، لمحت شبه ابتسامة، أو هكذا خيل إلىّ، نظرت إلى عينيها، بريق لا يقاوم، لم أشعر إلا والمكان خال، عدت إلى النهر جلست إليه، حكيت له، .. هكذا يا نهر تدفقت مشاعرى كما تتدفق مياهك، أنا أصرخ وحدى منتشيًا، قذفت برواية البؤساء سقطت على النجيل الذى يكاد يقف منتشيًا مثلى، جريت، كانت كل الناس تعلم بحبى، العربات وبائعو السودانى واللب، ماسحو الأحذية، السيدات فى الشارع، أنا خجل، ياه.. كل هؤلاء يعلمون ما بى، متى يأتى اليوم التالى؟

وجاء اليوم التالى، وجاءت الأيام التاليات، رأيتها، بدأت أتأمل كل شىء فيها، الشعر الأسود الذى يبدو مارقًا نافرًا، العينان، الأذنان، الأنف، الرقبة، الصدر، كل شىء فيها جميل جميل .. لم

نتكلم، ولكنى عرفت أنها تشعر بما أشعر، ترمقنى كل صباح، تهبط درجات الحنطور فى ترو، كل لحظة ترمقنى، أرتوى، أشعر بالسعادة وقلبى يخفق، لم أرغب فى أكثر من هذا،... كان سائق الحنطور يتجاهلنى، ومع هذا كان يحاول أن يحذرنى بطريقته فقد كان يضرب الحصان بعنف وهو واقف، ثم يعود ليضربه وهو يستحثه للانصراف.. لم يكن هذا يعنينى.. سقطت فى بئر الأحلام أحلام بالليل، نجرى ونلعب معًا، نزور الحدائق ونجدف فى النهر، نضحك كثيرًا، كان صوتها عذبًا، بالنهار أحلم بها، وأنا أذاكر وأنا أعمل مع أبى وأنا سائر فى الشارع، إنها معى فى كل لحظة، أتمنى أن تتحقق بعض أحلامى، سألنى رفعت :

- وهل عرفت اسمها.. ابنة من وما هو عنوان بلدهم؟

هززت رأسى نفيًا، قال:

- يا سلام وتقول إنك تحبها؟

كيف أتحدث إليها وهذا السائق اللعين يقف بيننا، جاءت فى الصباح، رفعت يدى فى محاولة لألفت انتباهها، قالت للسائق بحزم:

- لا تأتى فى الثانية.. احضر فى الثالثة.

ثم أشارت بيدها نحو شعرها، تحركت متجهة إلى المدرسة، رمقتها بإعجاب شديد، كان لابد أن أقضى كل هذا الوقت حتى الثانية كنت مصلوبًا فى الشمس، رأيتها تقترب هممت أن أقابلها واللهفة تعصف، ولكنها تجاهلتنى ومضت فى طريقها، مضيت خلفها وشعور بالخوف يداهمنى، وبعد عدة خطوات أبطأت فى

مشيتها، اسرعت أنا، حاولت أن أتكلم ولكن الكلام اختفى، مضيت لاهثًا ولا أدرى مـاذا أفـعل... عند الكوبرى انحـرفت يسـارا فى الحقول، تبعتها، توقفت وقالت:

- هل تحبنى؟

كان السؤال مفاجأة لى، لم أستعد له، تلعثمت وأنا أتأمل جمالها الآخاذ، لم أنطق، رحت أشرب جمالها قطرة قطرة، وقالت:

- هل أنت أخرس أم أنك لا تزال صغيرًا

قلت فى حماس:

- أنا طالب فى السنة الثانية الثانوية

قالت:

- وهل تحفظ شعرًا من أحمد شوقى

قلت:

- كله

قالت:

- فهل أنت قيس

قلت منطلقًا من عقال الخجل:

- بل أكثر من قيس حبًا، وأنت أجمل من ليلى

قالت:

- هل أنا فعلا جميلة؟

صرخت من السعادة، نسيت نفسى، رفعت يداى إلى أعلى، وقلت:

- يا ربى، لم أتخيل نفسى أقف بجوارك يومًا

ابتسمت فى خجل ثم قالت:

- هل تأتى فى الغد؟

قلت بسرعة:

- كل يوم، وإن أردت أظل هنا إلى الغد

أسرعت بالعودة فى تعجل خائف، أشارت إلىّ أن لا أتبعها، فعلت، فرحتى لا حدود لها، حكيت كل شىء لرفعت صديقى، أضفت بعض الكلمات التى لم تقلها، ظهرت الدهشة على وجه رفعت، قال فى استفسار :

- هل حقًا حدث هذا كله

فى المساء جلس بجوارى فى أحد مخازن القطن، جابر وهو شاب ذكى المعروف عنه أنه لا يعمل ولكنه يجيد كل شىء، ويجلس بجوار أبى أحيانًا، ويتمسح بى أحيانًا أخرى كى أعطيه قروشا قليلة يأخذها فى تعفف، قلت له إن الحب جميل، ولكن يبدو أنه صعب للغاية، همس فى أذنى :

- نذهب سويًا إلى عم مبروك فهو رجل صالح يكتب لك على ورق الشجر بأن تحبك

ذهبت وكان الرجل طويلاً نحيفًا، يجلس فى حجرة شبه مظلمة، أدخلنى جابر وعرفه اسمى، قال مبروك :

ـ أنت ابن سيد الناس وإكرامك واجب

شجعنى جابر لكى أحكى له حكاية حبى، حكيت، قال مبروك:

ـ هذا أمر بسيط .. موعدنا فى الغد لكى أكتب لك بالفائدة

ما كدت أنصرف حتى نبهنى جابر أن أعطى الرجل نقودًا، دفعت له كل ما معى، خرجت إلى الشارع وكأن الناس جميعًا يعلمون بحالى، عندما قابلتها فى اليوم التالى شعرت بالندم لأننى نطقت باسمها أمام هذا الرجل، تحدثنا عن أشياء كثيرة، قالت كل شىء عن حياتها، أخبرتها بمدى حبى لها وعن أحلامى، .. مضت مسرعة وهى تخشى أن تفوتها عربة الحنطور، أسرعت إلى النهر، أخبرته بمدى حبى، توالت الأيام وأنا أقابلها ولم أعد أقرأ، كما لم أعد أحضر إلى المدرسة، كان شغلى الشاغل أن أقابلها، حتى العمل مع أبى أهملته وتظاهرت بانشغالى فى المذاكرة بالليل كنت أجلس مع مبروك أعد له كتابات السحر كما علمنى، هذه للإنجاب، والأخرى لكراهية الزوجة الثانية، والثالثة للزواج من المحبوب، وهكذا لكل حالة، كتاب بالحبر الأحمر بكلمات ليست مفهومة ثم نضعها فى الماء ويشربها المريدون، ورحت منشغلا معه أحاول أن أفهم هذا العالم الذى استحوذ على اهتمامى حتى أننى كنت أذهب إلى موعد حبيبتى متأخرًا لتعاتبنى فى رقة أحيانًا، وفى ثورة أحيانًا أخرى، وأنا طوال الليل أساعد ( الشيخ ) مبروك فى أحجبته وفى البحث عن المسروقات وأيضًا فى أعمال سحرية أخرى، وفى كل ليلة يحضر إلى داره العشرات وجميعهم يتحدثون عن بركاته

وأعماله المعجزة، هذه أنجبت، والأخرى تزوجت ابنتها بعد أسبوع واحد، والثالثة انفصل زوجها عن زوجته الثانية، ورجل وجد بقرته التى سرقت منه منذ شهر، والرجل الآخر يتحدث عن كنز مدفون فى داره ولا يحتاج إلا زيارة (الشيخ) مبروك لداره، وآخرون يحكون ويأملون ويتمنون، والشيخ هو الملاذ، فى البداية كنت أصدق كل هذا، ثم بدأت أنشغل بالتأمل .. وأخيرًا بعد عام كامل تأكدت أنه دجال .. وقررت تسليمه للشرطة حتى لو أدى هذا إلى فضح أمرى أمام عائلتى وبلدتى، وذهبت إلى الضابط الشاب الذى اتفق معى على أن أساعده فى ضبطه متلبسًا بما يفعل لأن لديه أقوالا كثيرة لا يقوم على إثباتها دليل، ووعدنى أن لا أبدو أمام الناس، وبالفعل، بدأت أحتفظ بما يفيد على عمليات نصب لأن اللصوص الذين كانوا يسرقون المواشى كانوا على صلة به، عرفتهم جميعًا، وعرفت كيف تحمل النساء العاقرات، وكيف تحدث المعجزات التى لم تكن إلا حيل خبيثة منه، جمعت كل هذا وأعطيت الإشارة لضابط الشرطة الذى فاجأ (مبروك) فى حالة قيامه بالاتفاق على عملياته المشبوهة، وسيق إلى المحاكمة التى انتهت بسجنه، وكان العام قد انقضى وجاء الصيف شحيحًا فى فيضانه، راسب أنا فى كل المواد، .. واختفت حبيبتى فى ثنايا العقل المشتت بين الخيال والحقيقة .. مع سخرية رفعت صديقى من سذاجتى، ولكنى شعرت ببعض الراحة كلما مررت على دار (الشيخ) مبروك ووجدتها مغلقة وقد تكوم أمام بابها كومة من التراب .. وهل أندم على كل ما مضى.

# الفصـل الرابـع

البدايات والنهايات

كانت إجازة صيف صعبة، لم أخبر أبى أننى رسبت فى كل المواد، أخبرته أنها مادة واحدة، ابتسم فى رثاء ولم يعلق، كانت أخبار الرجل الدجال قد أحدثت دويًا فى بلدتنا والبلاد المجاورة، وغضب كل من له صلة بهذا الرجل، وخاصة اللصوص الذين كانوا يتعاونون معه، وحاولوا قتل عمى الأوسط فى إحدى الليالى، ثم أتلفوا زراعتنا، وشعر أبى أن مكانته تكاد تهتز، فلم يحاول أحد من قبل أن يمس ما يخصنا بسوء ولا بإشارة، مجرد إشارة سيئة، جهز أبى مجموعة من أعمامى وأخوالى بالبنادق وتعودوا أن يطلقوا أعيرة نارية كثيرة وكثيفة أثناء الليل، وفى أوقات متفرقة، عادت بلدتنا إلى الهدوء من جديد، وجاء كبار العائلات إلى أبى فى مصالحة ودية قبلها أبى، وأمر بذبح عدة ذبائح وإطعام الناس وتوزيع بعضًا منها على العائلات الفقيرة،.. كانت سعادتى بهذا الصلح أمرًا مفرحًا بالنسبة لى لأنه سوف يترك لى الفرصة لكى أتحرك كما أشاء، ولم تعد جدتى تحجزنى بغرفتى دومًا، اقتربت منى (نعيمة) وهى فتاة قروية تسكن فى الدار المقابلة لحجرتى،

قـالت إنهـا تراني دومًا مـن نافـذة دارهـم، وتتلصص عليّ وأنا أخلع ملابسي، كانت تأتي كل صباح إلى حجرتي بحجة إيقاظي من النوم ورغبتها في معاونة أهل دارنا الواسعة المتعددة الطوابق والأركان، بدأت تلاعبني وأنا أتظاهر بالنوم، ثم بدأت تعلمني أفعالا لم أتخيلها من قبل، وفتحت (نعيمة) زاوية من المتعة كنت أسمع عنها ولم أجربها قبلا، لم أكن أحبها ولم أقل لها، ولكنها كانت كل يوم تزداد تعلقًا بي وتعطيني من جسدها ما لم أطلب،.. ومضت الأيام ولا أحد يشعر بما نفعل أنا ونعيمة في حجرتي، ازداد هزالي وأنا أحاول التظاهر بأنني أقوم بالعمل مع أبي وأذاكر ليلا، وأمارس هواية التنقيب في أنحاء بلدتنا والبلاد المجاورة عن كل شيء قديم أو غير مألوف أو معروف، أنا ورفعت الذي لاحظ هزالي وارتعاش يدي اليسرى كما لاحظت جدتي أن صحتي لم تعد كما كانت، لم تحاول جدتي سؤالي، اهتمت بإطعامي، كانت تؤثرني بأكباد الطيور التي يذبحونها للغداء، وفي المساء تحرص على تناولي البيض واللبن، وعلى الرغم من معرفتي بسبب هزالي وشعوري بالإرهاق الشديد بعد المداعبات الثقيلة مع (نعيمة).. لكن المتعة التي أحصل عليها تجعلني أستزيد منها،.. حتى جاء اليوم الذي رأتني فيه أمها وهي قادمة من أول الشارع، يبدو أنها لمحتنا ونحن نهبط معًا من على الفراش إلى الأرض، وتنبهت أنا إلى عيون أمها وهي تندلع شررًا وهي تنظر نحوي، أخبرت نعيمة بسرعة التي انطلقت هاربة خائفة، سمعت بعدها أن أمها ضربتها بشدة لمجرد أنها شاهدتها بحجرتي، في اليوم الذي كانت نعيمة تشير بيدها من النافذة،

أخبرتها بأن الذى كان بيننا لن يتكرر ثانية.. لم أندم على قطع هذه العلاقة، وجاءت أيام الامتحان الصيفى، حاولت الاجتهاد لم يعد هناك ما يشغلنى عن النجاح، وتحولت حياتى بعد ذلك إلى بحر بلا أمواج، العمل مع أبى ثم السهر مع رفعت نتبارى فى الشطرنج وحفظ الأشعار ومبادلة الكتب العلمية التى كانت تستهوينا،.. جاء العام الدراسى، تغير زملاء الفصل جميعًا، فقد رسبوا وتركوا الدراسة وتزاملت مع آخرين لا يقلون عن القدامى شراسة وفوضى، لم تكن هناك دراسة بالمعنى المعروف مجرد ندخل الفصل ثم كل منا وشأنه، منا من ينصرف فورًا إلى المدينة ومنا من يلهو فى الفصل فترة ثم يقفز من سور المدرسة إلى الخارج، فكنت لا أدخل الفصل إلا قليلا ثم اتجه فورًا إلى المنطقة التى صارت لى مقامًا على شاطئ نهر النيل، منطقة مليئة بالعشب الأخضر، وبعض الزهور التى تنبت من تلقاء نفسها،.. قال زعزع إن الكفاح المسلح بالعمل ضد الاستعمار واجب وطنى ودينى، وأنه شكّل لهذا الغرض كتيبة من الطلاب يتم تدريبهم فى منطقة جبلية، واشتركت مع زعزع، كانت التدريبات العسكرية استعدادًا للقتال تتم طوال النهار تقريبًا، وكانت من العنف والقسوة جعلتنا نبدو كالأشباح، حاولت أن أجتهد فى التدريب، تعلمت أشياء عديدة لم أكن أتصور أننى أقوم بها، فأنا أجيد إطلاق النار من عدة أسلحة مختلفة الأسماء والأغراض وأجيد تسلق الحوائط والموانع وأركض تحت وابل الرصاص. وأتخطى حقول الألغام.. كان زعزع يفخر بنا وخاصة عندما يأتى قائد المقاومة الشعبية ويشاهد تدريبنا،.. علم أبى بما أفعل، عنفنى

بشدة لأننى مشترك فى عمل لا يتناسب وطالب علم، وأنه لا يزال الوقت بالنسبة لى مبكرًا للاشتراك فى هذا النوع من النشاط.. وعدته أن أكف ولا أعود، وبالفعل تغيبت عن التدريب، سألنى زعزع عن عدم حضورى، قلت أننى رهن إشارة «الكتيبة» إذا احتاجوا إلىّ.. بلدتنا على الرغم من أنها كبيرة إلا أنها بالنسبة لنا صغيرة جدا، لا شىء فيها مثير.. مشينا ذات يوم نحو الجبل، الغريب أن بلدتنا التى تقع على شاطئ النهر يتاخمها جبل رملى واسع، خطونا نحو الجبل، كانت الفتيات القادمات من الجبل بملابسهن الزاهية الألوان، والتى لها شكل متميز عن أردية الفلاحات، يثرن خيالى، فى هذا اليوم رحت أتابع سريًا منهن، وأحاول أن أتحدث مع إحداهن ولكن يبدو إنهن خائفات منا إلى حد كبير، أو على الأقل لا نبدو أنا ورفعت نصلح لكى نكون رجالا يأملن منهم خيرًا.. وعلى الرغم من الصد الذى واجهنى من فتيات الجبل إلا أننى ظللت عدة أيام وأنا أتردد على طريق الجبل أراقب فى اهتمام فتيات الجبل بملابسهن البدوية متذكرًا أن جدتى ترتدى حتى الآن ملابس مختلفة عن ملابس نساء القرى، وتقترب كثيرًا من أردية بنات الجبل، وتشجعت يومًا وسألت جدتى التى دعتنى إلى زيارة بعض أهلها هناك فى الجبل.. وركبنا الحمير. وعدوى ابن خالى يسوق حمار جدتى أما أنا فقد كنت ماهرًا فى ركوب الحمير فرحت أسرع بحمارى نحو الجبل أحيانًا وأتأخر حتى أمشى وراء جدتى.. وداخل الجبل وصلنا إلى الكثير من البيوت النظيفة المظهر الرقيقة الجميلة، استقبلونا الأهل بكثير من الترحاب وهلل الصغار حين

لحوا جدتى وتحلق الرجال حول جدتى حتى أدخلوها إحدى الدور، كانت جدتى تحمل الكثير من خيرات القرية، جلسنا فى بهو الدار، قدموا لنا الحليب الساخن ثم الشاى برائحته المعطرة، ثم أقاموا لنا وليمة الطعام حيث تحلق عدد كبير من الرجال حول جدتى، عرفت أنها فى مقام جدتهم جميعًا، ما عدا أمهم الكبيرة التى كانت شقيقة جدتى،.. بدأت الحكاوى والذكريات عن بلاد بعيدة يسكنها أهل الرسول، وتتبارى القصص على لسان أبناء أخوالى، وجاء ذكر سيدى سالم ووجدتهم يكبرونه ويبجلونه بكثير من الاحترام، بل لاحظت أن مكانته فى الجبل تبدو واضحة أكثر من قريتنا التى تحمل له الاحترام، ولكنهم فى بلدتنا كادوا ينسونه، ولا تأتى سيرته إلا كل مناسبة مهمة من مناسبات البلدة.. لم تتكرر كثيرًا زياراتى لبلدة عائلتى فى الجبل..

فجأة استدعانى زعزع وأخبرنى أنهم فى حاجة لوجودى بمنطقة القناة، لم أفكر فى شىء بقدر تفكيرى فى المشاركة فى المقاومة، أعرف أن أبى سوف يحزن، ربما يقاطعنى، وأيضًا دراستى سوف تتأثر، ولكن الشعور بالواجب، وأيضًا الإحساس بالفراغ، كل يوم أقضى معظم النهار بجوار النهر أقرأ وفى الليل أساعد أبى قليلا ثم نتجول أنا ورفعت حول البلدة نتكلم وكأننا تلامذة نجباء لأرسطو... سافرت بعربة صغيرة إلى جنوب الإسماعيلية أخبرونى أن دورى لن يزيد عن إبلاغ تعليمات قيادة الفرقة الجنوبية المتمركزة فى السويس إلى قطاعات جنوب الإسماعيلية على أن ارتدى ملابس مختلفة، لا قتال ولا يحزنون، كنت أتمنى الاشتراك

فى القتال الفعلى، كنت أسمع عن قصص لمعارك قوية بين فرقتنا والعدو، .. يجب أن أطيع، وبدأت رحلاتى من جنوب السويس إلى القرى التى تقع على شط القناة، رسائل لا تحمل فى مظهرها شيئًا غير عادى، مكتوبة على شكل أسئلة فى امتحانات الدراسة الثانوية، كنت أجيد تحويل الأوامر العسكرية إلى أسئلة فى الكيمياء أو فى الرياضة، وأحيانًا فى اللغة العربية، مضت الأيام وأنا أقوم بهذا العمل فى سعادة وخاصة وأن قواد المجموعة التى أعمل من خلالها أعجبتهم طريقتى، .. وسمعت عن نتائج بعض العمليات التى اشتركت فى توصيل تعليماتها .. ذهبت إلى الامتحان حتى لا يضيع العام الدراسى .. فى الصيف قامت الثورة. عرفت بعدها أن قائد المجموعة كان ضابطًا فى الجيش، قربنى منه، دخلت الجامعة وأنا على صلة به، لا أدرى كيف تغير تفكيرى كما تغيرت نظرتى إلى الحياة وإلى العالم، لم أكن أهتم بالتقسيم الجائر للدول، لم أكن أهتم إلا ببلدتى ثم بوطنى، وجدتنى وقد حملت هموم كل الأمم التى مثل أمتى، سافرت إلى موسكو، فى البداية كنت سعيدًا للغاية، وصلت بالطائرة قابلنى أحدهم تحدث إلى بالروسية لم أفهم ولكنى تابعت إشاراته، ركبنا، وصلنا إلى ما يشبه الفندق، أشار إلى إحدى الغرف دخلت مضى هو دون أن يترك لى فرصة معرفة أى شىء منه،.. جاء الليل رقدت من الإرهاق، فى الصباح جاءت سيدة تتكلم العربية وشرحت لى كيف أقيم هنا ومواعيد الطعام وأنها ستحضر يوميًا لأخذى إلى الدرس، ولكنها اليوم سوف تصحبنى فى زيارة غير رسمية لمدينة موسكو، أشارت إلى مبنى الكرملين وقالت:

ـ هنا السلطة التى تحكم نصف العالم، وبعد سنوات ستحكم العالم كله

لم أعلق، تأملت مبنى الكرملين الغارق فى ضباب الشتاء القارس، كان الناس يمرون سراعًا بملابسهم الثقيلة، قالت إن زيارة قبر لينين تحتاج إلى الوقت، ولهذا قررت أن تأخذنى إلى أحد المطاعم، الخاص بالأجانب لنأكل ثم نذهب لمشاهدة ( البولشوى )، كنت طوال الوقت أسأل نفسى عن سر هذا العبوس الذى يغطى وجوه الناس، كانت السيدة التى ترافقنى تتكلم كثيرًا، قالت إنها زوجة لأحد الموظفين فى السفارة الروسية فى القاهرة، وأنها تدرس الأدب العربى للحصول على درجة الدكتوراه، حدثتنى عن البحترى والمتنبى كان حديثها خليطًا بين العامية والفصحى، عندما أكلنا جاء وقت الحساب، أشارت إلىّ أن أدفع بالدولار، دفعت، كان الحساب قليلا وقارنته بما أدفع فى القاهرة، حدثتنى عن أبيها الذى فقدته خلال الحرب وشقيقها الذى أخذوه إلى سيبريا، وأختها التى تعمل فى حقول رومانيا، أما زوجها فهو فى القاهرة، وكلما شكت من حاجة أسرعت وقالت :

ـ الحياة هنا جميلة وكل شىء متاح وليس هناك أجمل من الحياة فى موسكو

عندما عدت إلى غرفتى، تذكرت أنها كانت تبكى أحيانًا ثم تتظاهر بالضحك، وكأن شخصًا ما يراقبها، جلست أفكر فى الناس، الأبنية الرمادية عكست روح الناس الرمادية، وجاءت الفتاة

التى تتولى خدمة النزلاء، وقالت أنها تود أن تأخذ تذكارًا منى، بحثت فى جيبى وجدت جنيهًا مصريًا أعطيتها إياه بعد أن شرحت لها أهمية هذا الجنيه عندنا، بعد عدة أيام طلبت منى أن أخرج معها لأنها تود شراء ملابس من محل معين لا يدخله إلا الأجانب .. وذهبت معها وقد أصبحت متفهمًا إلى حد ما لأحوال الناس، كانت الدراسة فى المعهد لا تأخذ من يومى الكثير ثم إنها دراسات فى التاريخ وآداب الشرق الأوسط، وطبعًا دراسة اللغة الروسية، وكلما مرت الأيام ازددت تعلمًا للغة، ومعرفة بما حولى من أمور بدت لى فى أول الأمر لغزًا، تألمت من أسنانى وأرسلونى إلى طبيبة الأسنان التابعة للمعهد الذى أدرس فيه،.. أخذت تتحدث معى بالإنجليزية، ثم فجأة قالت إنها ترغب فى ولادة ولد، لم أهتم بحديثها فقد كان الألم من سنتى يشغلنى.. خف الألم وطلبت منى أن أزورها فى الغد، تكررت زياراتى لعيادة (داليا) طبيبة الأسنان، وأصبحنا نتبادل القبل، وذات يوم أغلقت العيادة وقالت:

ـ أود أن أنجب منك طفلا

كان إغراءً شديدًا ولكنى قاومته، كان جسدها ملفوفًا فى تناسق وطولها يزيد من جمالها، شقراء نضراء العينين، حاولت هى، ورفضت أنا، فى النهاية أخبرتها أن ما تود أن تفعله سنفعله ولكن فى وقت آخر، حاولت أن أطيب خاطرها وأخبرها عن حبى لها، فى اليوم التالى وجدت العيادة مغلقة وسألت قالوا هى مريضة، أخذتنى الشهامة وقررت أن أزورها فى منزلها، حاولت العثور على

العنوان فلم يخبرنى به أحد .. مضت عدة أيام، انقطعت فيها للدراسة وإرسال خطابات إلى أبى وجدتى، بدأت الدراسة فى المعهد تأخذ شكلاً جديدًا، أصبحت الدراسة قاصرة على (المبادئ الاشتراكية) وتغير الأساتذة، وصارت الدراسة صارمة وجادة، بدأ الملل يدب فى رأسى، كيف السبيل إلى الهروب من هذا المعهد، ظهرت (داليا) ثانية، جاءت لزيارتى، أسعدتنى زيارتها، كانت أكثر جمالا وبهاء خرجنا سويًا، قالت إنهم نقلوها إلى مستشفى آخر فى نفس المدينة، كانت الشوارع التى مررنا بها أكثر رونقًا، وبدأ الربيع يشرق مع ظهور الأزهار على الشجر، أكلنا فى حديقة الشارع، ورقصنا، وفى اليوم التالى كنا فى الطابور الطويل لإلقاء نظرة على لينين، تكرر لقائى بداليا كل أسبوع، أقضى معها وقتًا جميلاً، وترينى مكانًا جديدًا، لم تحدثنى عن الطفل الذى تود أن تحمله منى، ولم أحاول سؤالها، كنا نعيش كزوجين أيام العطلات والإجازات فإذا ما انتهت الإجازة ذهبت هى إلى عملها بالمستشفى وعدت أنا إلى الدراسة فى المعهد، اكتشفت أننى سعيد بارتباطى بداليا بدأت تحكى لى عن أسرتها، تعاهدنا على أن لا نفترق، كانت أيام المعهد ثقيلة، والدراسة لم تعد تثيرنى، بل أحيانًا ما كنت أعارض الأساتذة، اتهمونى بأننى قومى أصولى، وأننى يجب أن أحرم من الدراسة فى المعهد، ولما أخبرت داليا قالت:

ـ يجب أن تتظاهر بالجدية فى الدراسة حتى تحصل على شهادتك، بعدها سنرحل من هنا

بدأت داليـــا تصب حديثها كله حول الهروب من هذا الجحيم كما تقول، هناك كثيرون من أمثال داليـــا يتحدثون بهمس عن الحياة السعيدة التى يحياها الناس فى البلاد الأخرى وخاصة البلاد الغربية، أما أنا فقد كنت مفتونًا بالنظرية، معلقًا كل تلك السلبيات على الذين يطبقونها هنا،.. ثم إن المحلات تكاد تخلو من الحاجات التى يطلبها الناس، ما عدا الأجانب وأنا منهم لدينا محلات ومطاعم خاصة دخولها بجوازات السفر والشراء بالدولار، والدولار الواحد يمكن أن يجعلك تعيش فى رفاهية نصف يوم،.. تواعدنا أنا وداليـــا على قضاء إجازة لتعلمنى التزحلق على الجليد، جاءت رسالة من القاهرة، من صديقى الوزير الذى كان قائدى فى فرق المقاومة، وهو الذى أرسلنى فى منحة المعهد بموسكو، كانت الرسالة موجزة للغاية.. احضر حالا.. ذهبت إلى السفارة، كانت التذكرة فى أول طائرة وأوصانى السفير بضرورة السفر إلى القاهرة فى الحال، ولما سألت عن حاجياتى وأوراقى فى المعهد قالوا ستعود خلال أسبوع واحد، وصلت إلى القاهرة، لم أجد وقتًا لوداع داليـــا أو إخبارها بسفرى، وعندما قابلت الوزير أخبرنى أن وجودى هناك فى موسكو لا يرضيهم، سألت وكنت أتصور أن علاقتى بطبيبة الأسنان هى السبب، قلت فى حماس:

- وهل الحب والزواج لا يتفقان مع النظرية

ابتسم وهو ينظر إلىّ فى سخرية:

- لأ يا خويا.. لأنك تصلى وتحرض الآخرين على الصلاة.

لم أستطع النطق، كانت صلاتى فى حجرتى، والرجل الوحيد الذى سألنى عن الصلاة، كان عامل النظافة وهو من القوقاز، يحاول أن يتعلم اللغة العربية والدين، وأحيانًا كنت أساعده، وتذكرت أننى قبل أن آتى إلى القاهرة كان قد اختفى ولم أسأل عن سر اختفائه، الآن عرفت، سجنوا العامل، وطردونى.. قال الوزير:

- ستسافر غدا إلى السودان

لم يكن لى الحق فى المعارضة وإحساسى أنى سببت له حرجًا مع الدولة الصديقة، لم أجب، راح يشرح لى مهمتى، قال إنها مهمة خاصة جدًا، ويجب عدم الحديث عنها مطلقًا وأشار إلى الدور الذى كنت أقوم به أثناء المقاومة، أعطانى جواز سفر باسم آخر ومجموعة أوراق وخطابًا خاصًا لقائد الثورة هناك، وأشار إلى أن مهمتى هى الوصول عن طريق قائد الثورة فى السودان إلى رئيس منظمة فلسطينية يبدو أنه فى حالة حصار..

لم أستطع الذهاب إلى بلدتى، كنت أرغب فى رؤية جدتى، أرسلت برقية إلى داليا أخبرها بسفرى المفاجئ وبأننى سوف أراسلها لنتفق على اللقاء، أرسلت برقية أخرى لأبى أعلمه أننى فى القاهرة، اشتريت ملابس جديدة، كان موعد الطائرة المتجهة إلى الخرطوم قد حان، أسرعت إلى الطائرة، ما إن هبطت فى مطار الخرطوم حتى فاجأنى الجو الحار شعرت بالدوار، الوجوه السوداء التى تبتسم فى وجهى لم تنسنى حرارة الجو، عندما قابلت قائد الثورة سألنى عن أول شىء لفت نظرى، ابتسمت وقلت فى مرح:

- الوجوه السمراء تضيء بابتسامة جميلة.

قال فى جدية شديدة وهو يطلّع على الخطابات التى سلمتها له:

- سنسافر فورًا إلى عمان بالأردن

لم أجب، هززت رأسى، قال لرفيقه الذى كان يلازمه:

- خذه إلى غرفة خاصة لكى يأكل ويستعد للسفر خلال الساعة القادمة

اصطحبنى الرجل، كان يرتدى ملابس عسكرية برتبة متوسطة، مثل قائد الثورة لم يقل لى كلمة واحدة، أشار إلى الغرفة، دخلت، جاء رجل يرتدى الجلباب الأبيض، ابتسم وهو يقدم لى الطعام ثم سألنى:

- هل يمكن أن تبلغ سلامى لناصر

ابتسمت وأجبته، كان الطعام بسيطًا، ولم يكن بى رغبة، شعرت بالارتباك والإحساس بأننى مقبل على مجهول، تمددت على الفراش وأنا أنظر إلى المروحة المدلاة التى تئن بصوت حزين، .. سمعت طرقات على الباب، يبدو أننى غفوت لحظات، وجدت قائد الثورة فى ملابس عادية، قال :

- هل أنت مستعد

أومأت برأسى موافقًا، هبطنا الدرج، حملتنى سيارة عسكرية حتى المطار، ما كدنا نصعد حتى انطلقت، كانت طائرة حربية فقيرة، جلسنا على أرض الطائرة، كنا أربعة.

قال قائد الثورة :

ـ كنت أتصور أنك أكبر سنًا

لم أنطق، تعودت أن أسمع هذه الجملة دومًا، قال بعد لحظات :

ـ الإخوة فى مصر .. قالوا إنك الأفضل فى هذه المهمات.

لم أسأل ما هى هذه المهمات أو على الأقل هذه المهمة .. وصلنا إلى المطار، يبدو أننا وصلنا خلسة، قابلنا رجلين على باب الطائرة، قال قائد الثورة فى همس مرددًا :

ـ ناصر.. ناصر..

دفعوا بنا إلى سيارة صغيرة، أسرعت السيارة، لاحظت أن هناك عدة سيارات خلفنا، بعد ساعة توقف الركب، الظلام يغطى المكان كله، قال قائد الثورة:

ـ سأهبط هنا.. أما أنت فعليك، أن تكمل مهمتك

يبدو أننى أعيش فى حلم مزعج، كيف أكمل مهمة لا أدرى ما هى، همس رجل من الذين بقوا معى

ـ بعد نصف ساعة.. نصل إلى هناك

لا رد عندى، وبعد نصف ساعة توقفت السيارة، وقال نفس الرجل:

ـ يجب أن تصل إلى هناك بمفردك

سألت فى غيظ:

ـ ثم ماذا بعد ذلك

كان الرجل والذى معه قد انصرفا، هبطت من السيارة، مشيت عدة خطوات، سمعت رجلا فى ملابس البدو كما يبدو لأن الظلام كان سائدًا إلا من ضوء بعض نجوم المنطقة الجبلية، قال البدوى:

ـ ادخل إلى النفق .. ستجد الرجل الذى أمامك يجب أن يخرج من هنا

وقبل أن أسأل سؤالا آخر قال البدوى:

ـ لو عرف أحد أنه هو.. سيقتلونه

تحركت خطوة نحو المكان الذى أشار إليه، بدأت بعض المعلومات تظهر على لوحة عقلى، إنه هو.. المقاتل المطارد، ناصر يريده أن يعيش، تحمست وبدأت أفكر فيما حولى، دخلت النفق، عانقنى بحرارة وتبادلنا القبلات على الطريقة العربية، قال:

ـ أود البقاء مع رجالى، ولكنهم يفضلون أن أمضى من هنا

قلت نعم يا رفيق، لابد أن نذهب، وإن قائد الثورة فى الخرطوم يدبر هذا الأمــر، المهم الآن أن نخــرج دون أن يدرى بك الجنود المحيطون بالمكان، وهناك من سيساعدنا من البدو، قال:

ـ سأفعل ما تشير به علىّ

فكرت فى أن نتسلل زاحفين، جاء أحد البدو مسرعًا ليخبرنا أن الجنود يفتشون المكان، ثم قال:

- يجب ألا يروه

قلت بسرعة :

- يجب أن يرتدى طاقية الإخفاء

وما كدت أقول هذا حتى اقتحم رأسى خاطر غريب، كنت رأيته فى أحد الأفلام قلت:

نريد ملابس بدوية

أسرع البدوى الذى يقف بجوارى وجاء بملابس سيدة بدوية، تردد زعيم المقاومة ولكنه قبل من أجل أن يخرج من هذا المكان، وبالفعل تسللنا فى الظلام حتى السيارة التى انطلقت بسرعة فى اتجاه الحدود، .. قاومت النوم وأنا جالس بجوار (أبو ياسر) ولكن يبدو أننى نمت، صحوت على وابل من إطلاق النار انهمر علينا من كل جانب، أخذت (أبو ياسر) قائد المقاومة وهبطت على أرض السيارة بينما راح المرافقون لنا يردون على إطلاق النار، استمر تبادل إطلاق النار أكثر من ساعة ثم انتهى كما بدأ، قال البدوى:

- إنه من الصعب المرور خلال الحدود وأنه يقترح أن ندور مع الجبل ثم نخترق الحدود من الشمال،.. كان النهار قد فرش ضوءه على الأرض، اقترحت أن نختفى فى مكان ما حتى لا ترانا الطائرات، اقترحت أن نلجأ لمخبأ يبدو أنه كان من أيام الحرب .. عندما جاء الليل بدأنا الحركة ونجحنا بالفعل فى اختراق الحدود، ولحسن الحظ أن قائد الثورة السودانى كان فى انتظارنا، قال:

- يجب تأمين مكان «أبو ياسر»

وخلال يوم كامل، كنا أنا وأربعة رجال نبحث عن هذا المكان، وأخيرًا اتصلت بنا مجموعة (أبو ياسر) في الأرض المحتلة لكي يرشدوننا إلى المكان الذي يجب أن نذهب إليه .. عدنا إلى الجماعة لنخبرهم عن الاتصال الذي تلقيناه، بدأ أبو ياسر الذي كان حتى اللحظة صامتًا، يتكلم قال إنه لن ينسى ما فعله الأخ قائد الثورة في السودان والرجال الذين ساعدوه

لم يهدأ قائد الثورة إلا بعد أن تأكد من وجود (أبو ياسر) في مكان آمن في جنوب بيروت، وودعني، صرت وحدي في بيروت، كلما تذكرت ما حدث لي في تلك الأيام، يبدو الأمر غريبًا، ولا أدري إذا كان من الممكن تكرار ما حدث أم لا، قابلني سفيرنا وقال إنه لا يحمل لي أوامر محددة، وإنني حر في أن أبقى في بيروت أو أعود إلى القاهرة، وإن كان يفضل عودتي لاضطراب الأحوال، كنت أرغب في رؤية بيروت وملاهي بيروت، هناك فرق كبير بين شوارع موسكو وشوارع بيروت، الفرق هو الحياة واللون والبشر، الحياة تدب في شوارع بيروت كصبية تعشق لأول مرة، تتقافز، تجري، تلعب، أما الحياة في شوارع موسكو حزينة كسيدة فقدت ولدها، اللون الرمادي يسود إلا من احمرار الأعلام إلا نادرًا، والناس في شوارع بيروت لهم صوت عال، يتكلمون في عنف مقرون بنغمة صوت واضحة صريحة، والناس في موسكو لا يتكلمون، يتكورون في معاطفهم وكأنهم طرود مرسلة بالبريد إلى جهات معلومة، أنت في

بيروت تحيا، تأكل، تعيش فى كل بقعة عصابة نصب، ينصبون عليك وأنت سعيد، فإذا لم يجدوا من يستغلونهم استغلوا أنفسهم، ومرحبًا بالحياة كسبًا وخسارة، ولكنك فى موسكو خاسرًا على طول الخط، الأبنية العالية والميادين المتسعة الفسيحة لا تسمح لك بالمرور إلا مضغوطًا، مضغوطًا من الخارج وأيضًا من الداخل، عندما أردنا تسجيل زواجنا أنا وداليــا علمنا أنه أمر صعب، وحصلت داليــا على رقم حجز المسكن الذى سيحل دورها فيه بعد سنوات خمس، فى بيروت يمكنك الزواج فى نفس اللحظة التى تفكر فيها فى الزواج،.. دخلت مطعمًا على ربوة عالية، قبل أن يقدم لى الساقى الطعام حكى لى قصة المطعم وصاحبه وأسرة صاحبه وحكايته هو نفسه، وابتسم فى وجهى عشرات المرات، ومازحنى حتى عرف أننى مصرى، أخذ يروى لى مجموعة من النكات المصرية، ثم أحضر أصناف الطعام المشهى قبل أن يسألنى ماذا أريد من طعام، طلبت سمكًا، بعد لحظات كانت أطباق الأسماك المتنوعة أمامى، ضحكت وقلت له:

لن أحضر عندك ثانية.. فلا ترحب بى كثيرًا

قال وهو يبتسم:

- سوف تجدنى فى كل مكان تذهب إليه فى بيروت

وصدق الساقى، فقد وجدته فى الفندق، وفى الملهى الليلى ووجدته أيضًا سائقًا للتاكسى،.. بقيت أعب من حياة بيروت عبًا، أرتوى بعد أيام وليالى موسكو الجافة، ولكن طيف داليــا لم

يفارقنى، أرسلت لها عشرات الخطابات، كلما أتذكرها أخط لها خطابًا وأرسله، أحبك يا داليـا وأحبك يا بيروت، قابلنى عويس فى ملهى النجمة، كان سكرانًا تحدث كثيرًا عن حياته، وعن رغبته فى السفر إلى أستراليا، تحملته بصعوبة، فأنا لا أشرب ولا أحب الذين يشربون إلى هذه الدرجة، قال وهو يودعنى آخر الليل:

ـ سنلتقى.

قلت بسرعة:

ـ بإذن الله.

صحوت على جرس التليفون، ما كدت أرفع السماعة حتى جاء صوته مهللاً:

ـ هل تنام إلى هذا الوقت؟

وكأننى لم أفارقه، جاء بسرعة ولا أدرى كيف علم بمكان إقامتى، لم أسأله هو الذى أخبرنى

عندما انصرفت مشيت خلفك حتى عرفت اسم الفندق الذى تقيم فيه

سألته فى حرية:

ـ لماذا؟

قال دون مواربة:

ـ طلبوا منى أن أستدعيك، لا تسألنى من هم، كل ما أعرفه أنهم

يريدون مقابلتك.. إذا كنت ترغب سوف أرشدك إلى المكان الذى حددوه.

قلت فى غضب :

- وإذا رفضت

قال فى هدوء :

- سأخبرهم وينتهى دورى عندئذ

راح يضحك وكأنه لا يزال سكرانًا، قال إنه جائع ويريد أن أدعوه إلى طعام، فهو كما أخبرنى لا يملك مالا وكل ما يملكه الأمل فى الهجرة إلى أستراليا .

أطعمته، وخلال تناول الطعام كنت أفكر فى هؤلاء الناس الذين يريدون رؤيتى، وهل أذهب أم أرفض، وهل هذا له علاقة بما قمت به مع (أبو ياسر)، ومن يعلم بوجودى فى بيروت، وهل اتصل بالوزير فى القاهرة وأخبره، مع أنه أمرنى بعدم الاتصال به تحت كل الظروف إلا بعد عودتى إلى القاهرة،.. السؤال مطروح والإجابة يجب أن تأتى من داخلى، وهذا الرجل الذى يأكل أمامى، عويس، ليس هو كما يدعى بالتأكيد، إنه شخص ما، له وظيفة ما، والسير معه إلى نهاية المشوار مخاطرة كبيرة، وقررت المضى فى هذه المغامرة.

كان الموعد فى المساء، خرجت من الفندق وذهبت إلى الشارع التجارى، حاولت نسيان ما يحمله هذا الموعد، اشتريت بعض

الأدوات والملابس، قابلتنى وأنا أشترى رابطة عنق، قالت إنها تدرس هنا فى الجامعة، وأنها تود أن تجد من يصاحبها فى جولة بهذا الشارع الملىء بالضجيج والزحام، ولأننى من أبناء بلدتها، ويبدو من هيئتى أننى رجل طيب، لم أصدقها بالطبع ولكن من عادتى أن أظهر تصديقى لكل ما أسمعه، لا يهم أن تكون طالبة بالجامعة أو بائعة ورق يانصيب، بيروت أيامها كانت مليئة بكل الأصناف من البشر وأولهم اللبنانيون الذين يتسلون بالنصب عليك، كما لاحظت، أخذتها إلى أحد المقاهى، طلبت ما تأكله، ثم أخرجت من حقيبتها مجموعة بطاقات بنكية، وقالت إن والدها المليونير سيرسل لها نقودًا كثيرة، قدمت لى إحدى البطاقات البنكية هدية.. ولكنى رفضت.

أخبرتها أننى طالب ولكن فى موسكو، و جئت للسياحة ومعى ما يكفى، قالت إنها فى حاجة إلى نقود سائلة حتى تشترى بعض الحاجات، وقالت البطاقات أحيانًا ترفض المحلات قبولها أعطيتها بعض الأوراق النقدية، قالت إنها ستذهب لتشترى حاجياتها وتعود فى الحال،.. كان موعدى قد اقترب، ذهبت حيث كان مكان لقائى (بعويس).. قال :

- لقد تغير الموعد إلى باكر

تذكرت الفتاة، عدت مسرعًا إلى المقهى وجدتها جالسة كان ظنى أنها لن تعود كما وعدتنى، قالت وهى فرحة:

- خشيت أن لا أجدك

قلت وأنا أجلس وقد بدأ عقلى يفكر فى حل لغزها:

- أنا لم أعتقد أنك ستعودين

أظهرت الدهشة، وقالت بسرعة:

- خذ هذه نقودك.. لم أجد ما كنت فى حاجة إليه

قلت فى شهامة واضحة:

- بل هو هدية بسيطة من أجلك

قالت:

- المال لا يصلح للهدايا... إنه فقط للشراء، وأنا لست للبيع!

- أعلم أنك ثرية، وأنا أيضًا لا أشترى

- إذًا خذ نقودك.. حتى أشعر بالراحة فى الجلوس معك

- بل نذهب إلى مكان آخر أفضل

وذهبنا، كان المكان الذى اخترته يعد مكانًا متميزًا، أسعاره مرتفعة ولكن كل شىء فيه نظيف، حتى ما يقدم من فنون، فالراقصات يؤدين رقصاتهن بكثير من الإتقان، والموسيقى مؤثرة للغاية، أما الطعام فهو من الأصناف الجيدة، والناس هنا قليلون، هادئون، جلسنا، تحدثت مارجريت، وهذا اسمها، عن حياتها فى بيروت، وإنها كانت تطمع فى السفر إلى باريس ولكن والدها لأنه مشغول دومًا، خاف عليها من الحياة فى باريس، وأنها فى بيروت ستكون فى رعاية عمة لها تقيم وسط بيروت، كما أن له أعمالاً

كثيرة فى لبنان، إنهم من أسرة كبيرة هاجرت من الجليل بعد العدوان، وأقاموا فى الإسكندرية، عمتها بقيت فى بيروت ولم تتزوج منذ أن هاجرت من الجليل، لها بناية صغيرة تؤجرها وتعيش على هذا الإيجار، لم يكن أمامى إلا أن أصدقها، أكلنا ورقصنا وجاء النهار وكان علىّ أن أذهب للنوم، أرسلت مارجريت إلى عمتها واستغرقت فى النوم ولم أفق إلا على طرقات على الباب، ووجدت عويس يصيح غاضبًا:

- يا ليتنى لم أقابلك

قلت وأنا أتركه يدخل الغرفة:

- ماذا حدث حتى تغضب هكذا؟

قال وهو يساعدنى على ارتداء ملابسى:

- إنهم يريدون مقابلتك الآن

قلت بسرعة:

- وكيف اتصلوا بك، ولماذا أنت بالذات، وما هى علاقتك بهم

قال وهو يدفعنى خارج الغرفة:

- عندما تقابلهم اسألهم

وجدت سيارة أمام الفندق، دفعنى عويس إلى داخل السيارة، أسرعت السيارة منطلقة، مضت ساعة والسيارة تجرى على طريق مخيف، إنه يتلوى مع الجبل، أكاد أشعر بأن السيارة سوف تسقط

من حالق، أخيرًا وصلنا إلى منطقة بها كروم وبعض الأشجار الخضراء القصيرة، توقفت السيارة، هبطنا، لم أجد أمامى أحدًا، ظللنا أنا والسائق فترة تلفت فى انتظار من يكلمنا أو يرحب بنا، بعد فترة جاء رجل يرتدى الملابس اللبنانية، وشاربه يكاد يدور حول رأسه قال بلهجته مرحبًا ومحييًا وقدم لنا القهوة العربية المرة، بعد فترة جاء رجل آخر يرتدى ملابس تشبه الملابس العسكرية، وقد غطى رأسه بالغطاء العربى، قال:

ـ إنهم سيصلون حالا

وحالا هذه لم تكن كذلك، انتظرت فترة طالت مع قلقى الشديد، ثم رأيت الأخ (أبو ياسر) وحوله مجموعة من الرجال الذين يحيطون به فى احترام واعتزاز، عانقنى أبو ياسر فى ود وحرارة، أجلسنى بجواره على البساط الملون، قدموا لنا أكواب الشاى، قال أبو ياسر مشيرًا نحوى:

ـ غامر بحياته من أجلى.. هكذا يكون الرجال

انحنيت برأسى فى تواضع، قال (أبو ياسر):

ـ نحتاج منك خدمة أخرى يا بطل

أومأت برأسى موافقًا، تحدث الرجال حول أهمية وجود سلاح للمقاومة وأن الوزير فى مصر لم يبخل بالسلاح المتاح، ولكن هناك مشاكل حول وصولها، حاولت أن أفهم دورى فى هذا كله، لم أعمل من قبل فى نقل السلاح، أجيد استخدامه فقط، ومنذ حرب

السويس وأنا لم أستعمل سلاحًا، كانت داليـــا قد جعلتنى أنسى كل شىء ما عداها هى، فهل يمكن أن أجد عند مارجريت ما انقطع بغيابى عن داليـــا قال أبو ياسر :

ـ تسافر إلى تونس تحمل رسالة شفاهية إلى (أبو محمود) سوف ألقنك إياها بعد الطعام

كان الطعام وفيرًا، الرجال يأكلون ويضحكون، والقمر بدا بازغًا فى السماء ينير الجبل كله، الواحة التى نجلس بها تحوى العديد من أشجار التفاح والمشمش، ورائحة التفاح تهب مع النسيم، تذكرت حدائق البرتقال فى قريتى، ورائحة زهور البرتقال، خرجت ليلى من زهرة متفتحة من زهور البرتقال، ابتسمت وأشارت أن اقترب، لم أستطع، شعرت بالخجل، قال (أبو ياسر):

ـ قل له نحتاج إلى الكثير من أقلام الرصاص، فإذا قال لك : والكراسات، أجبه فورًا : الكراسات مَع التلاميذ فى حوش المدرسة

سألت (أبو ياسر):

ـ وكيف أجد أبو محمود وأعرفه؟

قال:

ـ هل تحب أغانى أم كلثوم؟

قلت فى دهشة:

ـ طبعًا، ومن منا لا يحب أم كلثوم وأغانيها

تطلع (أبو ياسر) إلى السماء وقال:

ـ وخاصة عندما تغنى هلت ليالى القمر من راديو المقهى العربى على خليج تونس

بدأت أفهم، فسألته:

ـ والذى يسمع الأغنية يكون وحيدًا؟

قال (أبو ياسر) :

ـ واقفًا ينظر إلى البحر.. إنه متيم وغارق فى الحب.

فى صباح اليوم التالى، كان الشتاء قد بدأ يظهر فى بيروت، وكان أمامى يوم كامل قبل السفر إلى باريس ومنها إلى تونس، ازداد قلقى عندما اختفى عويس ولم يظهر، بحثت عن (مارجريت)، ظللت ساعة وأكثر أدور حول المكان الذى حددته لى سكنًا لعمتها، ولكن يبدو أن المكان قد تغير أو أنا الذى تغيرت، لم أعد أنا ذلك السائر نائمًا أو كالنوم، أذهب وأروح ولا شىء داخلى، بعد أن قابلت (أبو ياسر) فى الجبل وأنا أشعر أننى حملت سنوات زائدة عن عمرى، أحسست أننى دخلت حلبة الصراع دون أن أكون مستعدًا لها، حاولت الاتصال بالوزير فى القاهرة ولكنى فشلت، هل الرقم الذى استعملته تغير أم نسيته وحل محله رقم آخر.. أخيرًا قابلت مارجريت التى صاحت فى سعادة عندما رأتنى:

ـ ما كنت أظن أننى سوف أراك

قلت:

- بل أنا أبحث عنك منذ عدة ساعات.. وكأن منزل عمتك قد اختفى

قالت وهى تمسك بذراعى فى دلال:

- ها هو بيت عمتى أمامك مباشرة.. كيف نسيته هكذا بسرعة؟

نظرت حيث أشارت، كان منزل عمتها كما رأيته بالأمس، يبدو ظاهرًا واضحًا بجوار البنايات العالية من حوله، ولونه الأخضر يعطيه تميزًا عن بقية ما حوله، قلت:

- لا داعى للكلام الكثير.. تعالى لكى أودعك فأنا مسافر إلى باريس اليوم

صاحت وشهقة راعشة تخرج من فمها الدقيق

- لا تقل هذا

لأول مرة ألاحظ أن جسدها رشيق دقيق، وأن شعرها المنساب فى ليونة رخوة على ظهرها يزيدها فتنة، ووجهها المستدير الصغير الطفولى، وعيناها اللتان تبرقان فى رعونة تسرق القلب، قلت وأنا أمسك بها لا أريدها أن تذهب منى:

- جميلة أنت .. وأنا أحبك

صهللت فى ضحكات مرتعشة شهية، قفزت بجوارى، أمسكت بكتفى، كادت تثب على ظهرى، مشينا نحو قهوتنا، كان الساقى يعد المكان وكأنه كان يعلم بمجيئنا.

قال فى سعادة:

- كل شىء جاهز .. الطعام والشراب وما يلزم

لم أكن أتصور أننى سوف أستمتع بأمسية جميلة مثل تلك الأمسية التى قضيتها مع مارجريت التى شعرت بصدق مشاعرها، على الرغم من الوقت القصير الذى تعرفنا فيه سويًا، يبدو أن أوراق داليـــا الروسية ذهبت مع الرياح الشتوية لبيروت، سافرت إلى باريس، ما كدت أصل إلى المطار وأتجه إلى الكافيتريا ريثما يأتى موعد الإقلاع إلى تونس، وجدت أمامى ثلاثة رجال فى معاطف سوداء والقبعات سوداء أيضًا، قالوا يكاد فى وقت واحد هم الثلاثة:

- أنت مصرى

لم أجب، حاولت التحقق من ملامحهم ولكنى لم أتعرف على أحد منهم، قال الرجل السمين:

- لماذا تركت موسكو

تلفت حولى، ليس معى ما يمكن أن ينم عن مهمتى، قلت:

- وأنت ماذا يهمك فى الأمر؟

قال الثانى فى غلظة:

- لماذا لا تجيب..نحن نعرف من أنت وإلى أين أنت ذاهب

قال الثالث فى ثقة:

- ونعرف مهمتك تحديدًا

قلت فى سخرية تعمدتها:

- وماذا يهمكم من تركى موسكو.. إذا كنتم تعرفون كل شىء كما تدعون

اقترب السمين وقال فى تهديد:

- يمكننا التخلص منك بسهولة إلا إذا...

الشىء الذى اكتشفته منذ أدائى مهمة حامل الرسائل فى فرق المقاومة فى السويس إننى لم أعد أخاف من شىء إلا خوفى من ركوب الطائرات، ساعتها أشعر بالخوف الشديد وأقرر عدم ركوبى للطائرات ثانية، وخاصة الطيران السوفيتى الذى يبدو هو الآخر لا يهتم براحة البشر، مثل مصانع الأحذية التى لا يهمها أن تصنع الأحذية وفقًا لكل نظم العالم أجمع حيث يصنعون الحذاء مكونًا من قطعتين أحدهما تصلح للقدم الشمال والأخرى لليمين، لم أعد أخاف بعد أن عشت فى موسكو، كانت داليـــا تقول وتكرر:

- لا شىء صعب ولا شىء سهل

وعندما سألتها عن هذا اللغز الذى تكرره بالروسية بلكنتها السيبيرية، تقول كل شىء سهل لو إنك اشتغلت به وعملت من أجله، وكل شىء صعب لو أهملته ولم تجتهد فيه، هكذا ظلت داليـــا السيبيرية تكرر على مسامعى، وهكذا تعودت أن أجتهد أمام كل عمل حتى لو كان مجرد غسيل الوجه، وهذا علمنى عدم الخوف،

نظرت إلى الرجال الثلاثة، وأيقنت أنهم لا يعرفون شيئا ولكنهم يهددونى، فالخوف يؤدى إلى نجاحهم وإلى فشلى ولأنى لا أريد الفشل قلت فى سخرية:

- إنكم تريحوننى لو أسرعتم بقتلى فأنا طالب فاشل لم أنجح فى المعهد.

قال الرجل السمين :

- اسمع لا نريد مزاحًا، ما يهمنا أن تصل بأمان، فهناك أكثر من مجموعة مشكلة لكى لا تصل .. حتى لو قتلوك وهو أمر بالنسبة لهم سهل.

قال الرجل الثانى :

- سنحاول حمايتك بقدر استطاعتنا.

كان وقت إقلاع الطائرة المتجهة إلى تونس، تعمدت أن أصعد إلى الطائرة متأخرًا، دخلت والمضيفة تستحثنى لسرعة الصعود والجلوس إلى مقعدى، حاولت استعراض الوجوه فلم أجد الثلاثة الذين قابلونى فى كافيتيريا المطار، جلست وأسلمت أمرى إلى الله، جاءت المضيفة طلبت قهوة فرنسية، لم أستطع التخلص من الخوف، ناديت المضيفة وأخبرتها أننى فى حاجة لشراء هداية لزوجتى، ابتسمت وجاءت هى وزميلة لها ومعها مجموعة من زجاجات العطر وبعض قطع اللؤلؤ، اشتريت عدة زجاجات لمجرد الهروب من الخوف والتسلى بالحديث معهما، كانت إحداهما تبدو من أصل عربى، قالت بالعربية المغربية:

ـ هل أنت خائف.

قلت:

ـ نعم.

قالت :

ـ هل هذه أول مرة تركب طائرة.

قلت :

ـ للأسف.. ركبت كثيرًا ولكن فى كل مرة أشعر بالخوف.

قالت وهى تنظر إلى وجهى:

ـ هذا أمر عادى.. ولكن وجهك ينم عن شجاعتك، سوف تقابل صعابًا كثيرة وسوف تتغلب عليها، وهناك منصب كبير سوف تشغله.

ضحكت بصوت عالٍ، ارتبكت الفتاة وقالت:

ـ من حقك ألا تصدقنى.. ولكن هذا ما سوف يحدث.

قالت زميلتها وهى تناولنى ما اشتريته ملفوفًا فى أناقة:

ـ إنها من بربر المغرب.. وكل ما تقوله صحيح.. وقد جربناه.

انصرفت الفتاتان، كان صوت قائد الطائرة يعلن عن الوصول إلى مطار تونس الدولى، لم يكن معى إلا لفافة الهدايا، لهذا كنت من أوائل من هبطوا إلى أرض المطار، أسرعت بالخروج من الدائرة الجمركية، ومع أول سيارة أجرة تخرج من المطار كنت راكبها، رحب بى السائق بلغة عربية عبارة عن خليط من الكلمات الفرنسية

والكلمات العامية العربية، حاولت أن أفهم ما يقوله السائق وهو يتحدث بسرعة بلكنة فرنسية غريبة فلا هى فرنسية ولا هى عامية بدوية، قلت للسائق:

- هل يمكن أن نذهب إلى المقاهى المطلة على الخليج؟

توقف السائق ونظر نحوى وقال:

- أى خليج تقصد، هناك خلجان كثيرة.

قلت مستجمعًا كل ما أتذكره وفق ما قاله أبو ياسر:

- عند الميناء البحرى.

قال السائق:

- هل أنت مصرى؟

أجبته بهزة من رأسى، تحمس السائق، وعاد يقود سيارته وقد ألقم جهاز التسجيل شريط أم كلثوم (هلت ليالى القمر)، أردت أن أعرف سر تغيره فسألته:

- وكيف عرفت أننى مصرى؟

وكأن عقدة لسانه قد انفكت، فانطلق يتحدث فى حماس، بلهجة عامية مصرية واضحة، الأمر الذى أثار فضولى، ولكنه أجاب على فضولى دون أن اسأل، وقال:

- تعلمنا المصرية من الأفلام والأغانى، نحن هنا نعشق صوت أم كلثوم وفريد الأطرش وعبد الحليم، نحن نستمع إلى أم كلثوم

بشكل رائع.. أستاذ نحن نحب مصر، والحبيب يحب مصر التى عاش بها وأكرمته.

فهمت أن الحبيب هو (أبو رجيبة) أو أبو رقيبة كما نطلق عليه فى مصر.

كان الطريق طويلاً ولم يكف عم (عبد الحكيم) عن الحديث، حكى لى كل شىء عن تونس، وعن حياته وعن أسرته وعن حلمه الدائم وهو السفر إلى مصر ثم إلى مكة، كنا قد وصلنا إلى أول مقهى، أمرته أن يسير ببطء، قال عبد الحكيم:

- أستاذ .. أين حقائبك، ألست قادمًا من باريس؟

قلت بسرعة:

- سيحملها أخى ويتوجه إلى الفندق.

قال فى إلحاح:

- لماذا حضرت إلى هنا ..؟

قلت فى عدم مبالاة:

- ماذا بك يا عبد الحكيم.. لا تدخل فيما لا يعنيك.

قال فى شراسة:

- لن تجد من تبحث عنه.

قلت وقد تنبهت لسرعة التغير فى لهجته:

- قف هنا ولا تتكلم كثيرًا.

استدار وهو يوجه مسدسه نحوى، ثم توقف وما كاد يقف حتى اندفع بجوارى رجل يرتدى جلبابا أبيض وطاقية بيضاء، وقال فى لهجة مغربية:

- إنه ضيفنا يا عبد الحكيم.. لا تقتله .

اعتدل عبد الحكيم وتحرك بالسيارة، وأصبح الأمر داخل السيارة للرجل الذى يرتدى الجلباب، جلست فى مكانى أفكر فى كافة الاحتمالات، مضت السيارة حتى دخلت المدينة، كان صوت أم كلثوم واضحًا، الصوت قادم من المحلات، دخلنا الشارع التجارى، أو هكذا يبدو، الجميع يرتدون الجلباب، الشارع يشبه شارع الموسكى بالقاهرة، الكثير من العادات والتحف والملابس العربية، دخلنا زقاقًا، أمرنى الرجل بالهبوط، كنت ممسكا بحقيبة البلاستيك التى تحوى زجاجات العطر الفرنسى، أدخلونى إلى منزل يشبه منازل أهل القرى، اضطررت للانحناء حتى أدخل من بوابة خشبية، ذكرنى الباب بدارنا؛ لأن جدتى تمتلك بابًا خشبيًا، وله قفل من الخشب وتفتحه أيضًا بمفتاح خشبى، وجدت دهليزًا ممتدًا مفروشًا بالبساط، كان الرجل الذى يرتدى الجلباب يوجهنى وهو خلفى، مضيت حتى انتهى الدهليز، وبرز المكان أكثر اتساعًا وكأننى دخلت دارًا أخرى غير تلك الدار التى دخلتها فى أول الأمر، عبرنا ردهة فسيحة مربعة، ثم دلفنا حجرة تشبه (المندرة) فى دارنا، كان هناك رجل يرتدى الملابس الإفرنجية، وعلى رأسه طاقية مغربية سوداء.

قال الرجل:

- أهلاً وسهلاً

كان ينطق بلكنة مصرية وبلغة عربية واضحة، ليس بها لكنة المغاربة، انصرف الرجل ذو الجلباب، ودخلت فتاة على جانب كبير من الجمال، كانت ترتدى جلبابًا مغربيًا مطرزًا، قدمت لى الفتاة كوبًا من عصير الفاكهة، قال الرجل :

- أشرب ولا تخف، أنت فى أمان.

وضعت الكوب جانبًا، نظرت الفتاة نحوى بكثير من الفضول، ثم أشار الرجل إليها بالانصراف، نظرت إلى الرجل، وقلت :

- ماذا تريدون منى؟

ابتسم الرجل، ثم قال:

- نحن لا نريد شيئًا، أنت الذى تريد.. فما هى رسالتك؟

قلت:

- إننى أبحث عن مخطوط باللغة العربية للمقريزى.

قال وهو يبتسم:

- هل تحملت كل هذه المشاق من أجل مخطوط المقريزى؟

قلت:

- لم أشعر بالتعب بعد.. فمن أنت؟

قال:

- أنا اسـمى إسـحـاق إبراهيم، يلجـأ إلى كل من يحـتـاج إلى مساعدة مهما كانت هذه المساعدة.. وأنت تحتاج إلى مساعدة لهذا جئت بك إلى هنا.

قلت:

- ليس معى شىء يهمك، ولا أحتاج إلى مساعدة من أى نوع.

قال:

- حسنًا، اشرب شرابك وانطلق بسلام.

تلفت حولى وكان عقلى يدور فى محاولة للفكاك من هذا الأسر الذى يبدو أنه ليس سهلاً الفكاك منه..

سمعت صرخة الفتاة فى نوبات متسارعة، ارتبك الرجل الذى يدعى إسحاق..

# الفصل الخامس

انشغل إسحاق بالفتاة التى كانت تصرخ وتتلوى من الألم، تظاهرت بأننى أيضًا مشغول بأمر الفتاة، رأيت إسحاق فى حالة ذعر شديد، وظهرت امرأة ترتدى عباءة سوداء لا يظهر منها إلا عيناها، كانت الأخرى مرتبكة، لمحتنى وأنا أحاول التسلل إلى الخارج، أمسكت بى حتى جاء إسحاق الذى قال:

ـ لا تتعجل.

أشرت إلى الفتاة التى لا تزال تتألم، وقلت:

ـ يجب إحضار الطبيب.

أمسكت السيدة بالفتاة فى غلظة شديدة، وحاولت جرها إلى داخل إحدى الحجرات، بينما قال إسحاق:

ـ أمها وهى أدرى بصالحها.

أومأت برأسى، قال فى ثبات وتخابث:

ـ لو أخبرتنى بالرسالة التى تحملها سوف أدعك تتصرف ومعك مال يغنيك عن العودة إلى بلدك.

قلت:

ـ لا أحمل رسائل ولا أعلم شيئًا مما تقول.

قال:

ـ والآن انتهى دورى... كنت أظن أنك سوف تخبرنى فأفيدك وأساعدك... فهل ستخبرنى، أم أسلمك لمن هم أقسى قلبًا منى.

لم أنطق، تحدث الرجل فى التليفون، لم تمض لحظات حتى دخلت مجموعة من الرجال يرتدون الجلباب الأبيض، ولحاهم ظاهرة، أشار إسحاق نحوى وقال:

ـ خذوه.

دفعنى أحدهم على وجهى فانكفأت، دفعنى آخر فى قسوة، شعرت بشىء من الدوار، حاولت أن أتماسك، شعرت بقبضة أحدهم تهوى على رأسى، وآخر يقول.

ـ لا يزال صغيرًا، وسوف يتكلم.

شعرت بقبضاتهم فوق رأسى وجسدى.. رأيت داليا تحكى عن جدها الكبير الذى عاش فى أصقاع سيبريا، وكيف كان يمشى على جبال وتلال الثلج من أجل البحث عن طعام له ولأسرته، كانت تحكى كيف كان جدها الأكبر يغوص بين قطع الثلج الحجرية،

ساعات لكى يحصل على بضعة سمكات،.. قبلتنى داليــا بعنف، شعرت بالألم فى فمى، ولكن الإحساس بالراحة يلفنى، حاولت النداء على داليــا قالت إنها حامل وأنها سوف تنجب،.. لم أسمع بقية حديثها، ذهبت ووجدت أمامى مجموعة من الوجوه الملتحية ذوات الطواقى السود، قال أحدهم:

- يجب أن نتخلص منه، لم يعد له فائدة لنا.

تنبهت حواسى على تلك الكلمات، جاءت إلى ذهنى كل ما أحمله من الرسائل، حزنت على نفسى، جرنى أحدهم خارج هذه الحجرة، تظاهرت بالإغماء، تركنى الرجل ومضى.

سمعت صوت إسحاق بضرورة التخلص منى حتى لا أسبب لهم المتاعب، قال أحدهم بصوت غليظ :

- أنا أعرف أنه كان هناك، وأنه صديق رجل مسئول مهم.

قال آخر :

- إذا كنا قد فشلنا اليوم، لماذا لا نحاول مرة أخرى، ولكن لكى نستفيد به عند الرجل المسئول.

قال إسحاق فى حسم :

- لا أريد مشاكل مع الناس فى تونس .. تخلصوا منه.

حاولت أن أرى الملامح، ولكن استدارتى سوف تعنى أننى أفقت، لم أهتم برؤية الوجوه، ولكن عرفت أنهم فشلوا معى، أسعدنى هذا الخاطر، وتشجعت أن أكمل، .. ظهرت مارجريت وهى تقول :

ـ متى تعود إلى بيروت؟

كدت أضحك، لقد تاه عقلى وتداخلت الصور، حاولت جاهدًا أن أتذكر كل شىء، تركونى وحدى، لابد أن أتصرف أن أنجو، ولكن كيف، زحفت عدة خطوات، سمعت صوت أنات الفتاة، حاولت الزحف لكى أسمعها جيدًا، بات صوتها قريبًا منى تعمدت أن أصدر صوتًا، كان كل همى أن أعرف أين أنا، .. كفت الفتاة عن الأنين، يبدو أنها تنصت، قلت بالفرنسية :

ـ ما اسمك؟

لم أسمع ردًا، قلت أجرب بالعربية، لم يكن هناك جواب، ولم تصدر صوتًا يدل عليها، قلت :

ـ نحن الاثنين فى حاجة إلى التعاون.

قالت بفرنسية سليمة :

ـ يمكن مساعدتى.

قلت بسرعة :

ـ ومن لا يساعد جميلة مثلك.

قالت :

ـ أنا أراك، لو حاولت الزحف فى اتجاه صوتى سترانى ولا أحتاج إلا إلى فك قيودى، هل تقدر؟

كنت قد زحفت نحو الصوت، ووجدتها ترقد على وجهها والأيدى والأرجل مقيدة إلى الحائط برباط معدنى، عندما انحنيت عليها كى

أفك وثاقها شعرت بآلام حادة فى كل أنحاء جسدى، رأيت ذراعى وقد سقطت بجوارى لا تتحرك، حاولت بيدى الأخرى، فشلت، حاولت ثانية درت حولها، انفكت السلسلة الحديدية التى كانت تربطها إلى الحائط، قالت فى سعادة :

- هذا يكفى.. أعرف الطريق إلى الخارج، ازحف خلفى.

والردهة الضيقة المظلمة، تبدو طويلة، ولكن الفتاة تزحف أمامى فى إصرار، كنت ملهوفًا كى أعرف من هى، ولماذا تنقذنى، والسؤال الأكثر إلحاحًا ماذا فعلت هى الأخرى حتى يعذبوها على هذا النحو، فجأة لاح نور الشارع، كان الوقت فجرًا، لا أحد من المارة، رأيتها على ضوء بداية النهار، كانت مليحة جميلة ليس عليها إلا سروال وقميص، أسرعت بها حتى لا يراها أحد، قالت:

- أنا فرنسية أعيش هنا فى تونس، سوف أخبرك بكل شىء فيما بعد.

أشرت إلى سيارة أجرى، توقفت، دفعت الفتاة إلى داخل السيارة، جلست بجوارها، قلت للسائق فى غلظة:

- هل تعرف مكان السفارة المصرية؟

أدار رأسه، تطلع إلى فى تخابث وقال:

- أهلين، سيدى.

انطلقت السيارة، وبعد قليل قالت الفتاة:

ـ اسمى سارة من أصل مغربى، أقيم فى شارع الثورة، يكفى أن أصل إلى أول الشارع.

يبدو أن سائق التاكسى لا يكف عن النظر إلينا فى المرآة، كنا قد وصلنا إلى الشارع الذى تريده (سارة) أسرعت بالهبوط وهى تشكرنى، عادت السيارة إلى السير قلت للسائق:

ـ هل أنت لص؟

اضطرب السائق وهو يقول:

ـ لماذا يا أستاذ.

قلت:

ـ كف عن النظر فى المرآة وانتبه إلى الطريق، أريد فندقًا مريحًا، هل تعرف؟

تغيرت لهجته وانطلق لسانه بكلمات الترحيب، وحدثنى عن جمال تونس الخضراء وأنه على استعداد لدعوتى على الغداء فى منزله، وأن والدته أشهر من تصنع (المفتولة)، كنا قد وصلنا إلى فندق يبدو من الخارج أنه فخم، قال السائق:

ـ هناك غيره.. لو أردت أقل تكلفة.

هبطت من السيارة، أعطيته ما أراد وشكرته، انطلق السائق، درت حول الفندق، لمحت فندقًا آخر خلفه، قررت أن أبيت فى الفندق الثانى، وكان موظف الفندق رجلاً طيبًا، أشار بسرعة إلى

حامل الحقائب الذى أسرع يرشدنى إلى حجرتى، وموظف الاستقبال يسألنى فى تعاطف:

ـ هل أحضر لك طبيبًا؟

أجبته بالنفى، دخلت الحمام، حاولت إزالة آثار الاعتداء، كانت ذراعى المدلاة تؤلمنى ألمًا شديدًا، حاولت ربطها إلى عنقى، لم تمض إلا ساعة وكنت أغط فى نوم عميق.

بعد عدة ساعات أفقت على أصوات متداخلة، انتبهت إلى ما حولى.. كان الطبيب يفحص جسدى فى اهتمام وموظف الاستقبال يقف بجواره، قال الرجل عندما لاحظ يقظتى:

ـ لم أتحمل أن أراك بهذه الصورة دون أن استدعى ابن أخى الطبيب لكى يعالجك.. أنت مثل ولدى يا بنى.

شعرت بالامتنان للرجل الذى أخذ يستحث الطبيب لكى يبذل أقصى جهده لعلاج جروحى وذراعى التى لا تتحرك، ومكثت تحت العلاج فى غرفة الفندق ثلاثة أيام بعد إلحاحى على موظف الاستقبال لكى لا يخبر أحدًا وخاصة الشرطة..

فى اليوم الرابع، كنت قد صادقت الدكتور قاسم، الطبيب الذى يشرف على علاجى الذى أخذ يحدثنى عن الأحوال السياسية فى تونس، وإنهم يحبون الحبيب بورقيبة، ولكنه لا يريد أن يساير روح العصر ويطبق الديمقراطية، على الرغم من أنه صاحب الاقتراح بتقسيم فلسطين، وحاول قاسم أن يطلعنى على كثير من حركات

الشباب التونسى التى تسعى إلى التغيير، لم أحاول الاشتراك بحماس فى حديثه عن الأحوال السياسية، وكنت دومًا أجيب إجابات هامشية، فى ذلك اليوم دخل غرفتى رجلان يبدو عليهما أنهما من أهل الشام، وحديثهما دل على ذلك، وضعوا أمامى رزمًا من الدولارات وهما يقولان:

ـ إن هذا المال خصص لك من جماعتنا بعد أن علمنا بما عانيته.

لم يحاول الدكتور قاسم التدخل فى الحديث ولم يشترك فى المناقشة عن تغلغل النفوذ اليهودى داخل سوق التجارة والمال فى تونس، رفضت المال بالطبع، فأنا لا أستحقه ولا أريده، حاولا معى كى أقبل المال ولكنى رفضت، وكان بداخلى إحساس بالخطر، انصرفا بعد أن أعلنا غضبهما لأننى لم أقبل منهما المال، اقترحت على الدكتور قاسم أن يأخذنى إلى منطقة المقاهى على الخليج، وأخبرته أننى متشوق للجلوس هناك، وبالفعل ركبنا سيارته الصغيرة إلى الخليج، ولا أعرف لماذا سموها (أهل الهوى)، كان صوت أم كلثوم يأتى من كل مكان، وكلما توقفنا عند قهوة، أطلب أن نمضى إلى أخرى، وجميع المقاهى تذيع من داخلها تسجيلات لأم كلثوم، وخفت أن أفشل فى إبلاغ الرسالة لولا أن اقترب منى أحدهم، وقال:

ـ هل معك كراسات التلاميذ؟

تأملته، كان رجلاً عاديًا، يرتدى الملابس الأوروبية، وجه عابس لا يبدو عليه ملمح محدد، قلت:

ـ معى الكراسات.

رحب بنا الرجل بلهجة مغربية، وأقسم أن يستضيفنا على مقهاه، فسألنى الدكتور قاسم عن الرجل وما هى حكاية كراسات التلاميذ، جلسنا على الشاطئ، كانت المائدة أمامنا عامرة بأطايب الطعام والمشهيات، وأحضر الساقى نارجيلة قدمها لى وأخرى للدكتور قاسم، بينما استأذن الرجل لعدة دقائق بحجة رغبته فى تغيير ملابسه، كنت جائعاً أكلت بعض الفاكهة، لم أستطع تدخين النرجيلة بينما راح الدكتور قاسم يدخن بشراهة وسعادة بدت على وجهه وهو يردد:

ـ تصور.. منذ شهور وأنا أود الحضور إلى هنا ولكن لم أجد وقتًا كافيًا.

جاء الرجل مرتديا جلبابًا مراكشيًا ومعه رجل آخر يرتدى نفس الملابس، رحب الرجل الثانى بنا ترحيبًا حارًا، وجاء الساقى بالمزيد من الطعام والشراب، قال الرجل الثانى فجأة:

ـ كل شىء تمام يا أستاذ.. هل الكراسات جاهزة؟

نظرت نحو الدكتور قاسم، قال الرجل:

ـ لا تخف، قاسم معنا.. ونحن أرسلناه إليك.

تحدث الرجل بإسهاب عما يجب فعله لإنقاذ فلسطين، وأنهم يستعدون بكل طرق، ولما حاولت الاعتراض على صراحة الحديث، قال الرجل إنهم لا يخشون من شىء، انتهى الحديث وأبلغت الرجل

كل ما قاله لى أبو ياسر، وشعرت بأنهم يحترمونه كثيرًا ويؤيدونه وعلى استعداد لفعل أى شىء من أجله ومن أجل القضية، ولفظ القضية هذا سمعته وأسمعه كثيرًا، يكفى أن تقول (القضية) لكى يعرف المستمع أنك تتحدث عن فلسطين، رغبت فى الانصراف استعدادًا للسفر، أعطانى الرجل حقيبة بها نقود وبعض الأوراق المدون بها أدعية دينية، وقال:

ـ هذا المال خذ منه ما تحتاج إليه وسلم الباقى (لأبو ياسر).

ولما حاولت الاعتراض رفض الرجل وهو يردد:

ـ هذا من أجل القضية وليس من أجلك.

نظر إلى الدكتور قاسم الذى لم يكن صريحًا معى منذ البداية، ولكنى عذرته، انطلق الدكتور قاسم بنا إلى وسط المدينة وهو يقول:

ـ لا تغضب لكل وقت آذان يا رفيقى.

سألته فجأة:

ـ هل تعرف سارة؟

نظر نحوى بجانب من وجهه وهو يتظاهر بالاهتمام بالقيادة، ثم قال:

ـ من سارة هذه؟!

قلت فى سخط:

ـ هل تتصور إننى لم أعرفك من أول وهلة؟

قال:

- كنت أؤدى واجبى.

رغبت فى تركه، استأذنت أن يتركنى فى أول الشارع، قلت إننى أريد أن أتسوق، كانت الحقيبة التى أعطاها لى الرجل فى مقهى الخليج ثقيلة إلى حد ما، تركته يمضى، وسرت عدة خطوات، الشارع مزدحم، الكثير من المحلات، يبدو أن كل المحلات التجارية تركزت هنا فى هذا الشارع، وجدت محلاً يبيع الحلوى، دخلت وطلبت مجموعة من الحلويات، أردت أن آخذها معى إلى القاهرة، فجأة وجدت أمامى سارة، ولكنها ترتدى فستانًا جميلاً محلى بالدانتيل، فى شعرها شريط أحمر كانت تشترى الحلوى، عندما لمحتها، أسرعت إليها، شهقت هى عندما رأتنى، وحاولت الإفلات، أمسكت بها وأنا أردد:

- لن أتركك مهما حاولت.

توقفت وهى مستسلمة، قالت وهى تتلفت حولها:

- أرجوك اتركنى فأنا..

توقفت عن الكلام، قلت مستحثا:

- وأنت ماذا؟!

أشرت إلى ركن بالمحل لنجلس، ولكنها قالت:

- ليس هنا.. تعال معى.

كانت جميلة وتكاد لا تشبه الفتاة التى كانت معى ليلة أمس، إنها الآن تبدو طالبة فى مدرسة متوسطة، شعرها المربوط بشريط أحمر، ورداؤها الملون ذو الطابع الفرنسى، كانت تشبه (داليـــا الروسية) إلا أن سارة دقيقة رقيقة فى نصف حجم داليـــا مضينا من المحل دون أن نأخذ ما طلبناه، سارت وهى صامتة، كان الشارع أكثر ازدحامًا، دلفنا إلى إحدى الحارات، يبدو أن المحلات فى هذه الحارة تعمل فى صناعة الملابس المغربية، عشرات من الأردية المعلقة فى استعراض واضح، أصوات العاملات والماكينات يحدث دويا، تذكرت خلايا النحل، بعد عدة محلات دخلنا إحداها، كانت بالفعل ورشة لصناعة الملابس، كانت هناك سيدة مسنة تعمل على إحدى الماكينات، توقفت سارة عندها، وعندما رفعت السيدة المسنة رأسها ورأت سارة، وقفت مسرعة وهى تقول:

ـ عفوا عندى عمل بالداخل.

مضت السيدة، أشارت سارة إلى ركن من المقاعد القصيرة الخشبية، يبدو أنها غير مريحة، قالت سارة:

ـ إنها مقاعد الشغالات فى التطريز.. وهذا هو المحل الذى تركه لى والدى عليه رحمة الله جلست، كنت أود أن أعرف من هى، ولماذا كانت محبوسة عند هؤلاء الذين عذبوها وضربونى أنا بقسوة، قدمت لى كوبا من شراب النعناع، كانت رائحته فواحة، قالت:

ـ جاء أبى من فرنسا وهو شاب، كان السفر إلى المغرب سهلاً

ومغربيًا، دارت الحروب في المغرب، جاء أبى إلى تونس، وتزوج من بناتها، أبى كان

سكتت سارة ونظرت نحوى، أكملت أنا بسرعة:

ـ كان يهوديًا

ولكنه لم يكن متدينًا ولا يهتم بطقوسه، أمى كانت مؤمنة، حاولت أن تصلح حاله، ولكنه انغمس فى الشراب، استدان، لم يقدر على السداد، مات.. هاجم أصحاب المال أمى التى حاولت السداد، اشتغلت بجهد وبإصرار، ولكن الدين لا ينتهى، كان إسحاق أكثر تسامحًا معها، حاول أن يسدد عنها لكى يصبح الدين كله لحسابه، رفضت أمى خوفًا من تحكم إسحاق فى حياتنا، كرهته لأنه كان يهين أمى بكثرة وفى كل الأوقات، دائمًا يذكرها بأبى الذى كان سكيرًا، أفلحت أمى فى سداد الكثير من الديون بعملها الدائم، ولكن ظل دين إسحاق، خيرها ذات مرة أن يأخذنى مقابل إسقاطه الدين أو طردنا من هذا المحل.. حاولت أمى أن تسدد الدين ولا تدعه يأخذنى، ولكنها ماتت.. وجاء إسحاق وأخذنى عنوة، حاولت المقاومة، أحياناً كان يأخذ منى ما يريد، وأن أعمل كخادمة عنده، وأحيانًا أرفض فيربطنى كما رأيت، والآن..

قلت بسرعة:

ـ والآن سوف يعود ويأخذك من جديد.

قالت فى شرود:

- هذا محتمل إلا إذا ..

سكتت ولم تكمل، قلت استحثها:

- إلا إذا .. ماذا يا سارة ؟

قالت فى إصرار :

- إلا إذا قتلته.

تنبهت إلى ما قالته، سكتت، أشارت إلى كوب شراب النعناع، وقالت:

- اشرب ولا تهتم.

قلت فى إصرار :

- يجب إبلاغ الشرطة، القانون يكفل حمايتك.

قالت وهى تنظر إلى عينى :

- ولماذا لم تبلغ أنت الشرطة .. لماذا تحملت ولم تخطر القانون؟

قلت :

- وهل عندك فكرة عن سبب ما فعله إسحاق معى

قالت فى براءة :

- لا أعرف، إنما إسحاق هكذا، إنه الشر بعينه، فمنذ أن ولدت وأنا أراه يعذب الناس بيده أو بلسانه، وعنده رجال كثيرون يأتمرون بأمره.

قلت مستدرجًا :

- وما هو عمله بالضبط؟

ضحكت فى هيستريا غريبة :

- عمله .. أو لا تعرف ما عمله وأنت كنت ضيفًا عنده، إنه لا يعمل أمواله هى التى تعمل .. إنه أخطبوط له فى كل مكان ذراع طويلة.

قلت :

- أنت تكرهينه بشكل واضح.

قالت :

- لست وحدى فى كراهيته، إنه نفسه يكره نفسه .. لا تشغل بالك، أعتقد أنك الآن أصبحت تخاف من مصاحبتى.

قلت فى إصرار:

- بل أنا متمسك بمصاحبتك .. على الأقل حتى أسافر إلى بلدى .. هيا بنا .. نبتعد عن أذرع إسحاق

خرجنا، وأنا لا أدرى لماذا أضع نفسى فى مكان الخطر، لقد أديت رسالتى وانتهى الأمر بسلام، ومعى أمانة النقود التى يجب أن تحمل إلى (أبو ياسر) ..

اشتريت لسارة بعض الملابس والهدايا التى تقبلتها شاكرة، مضيت إلى موقف الحافلات، ركبنا متجهين إلى بلد يبعدنا عن تونس، ربما نجحنا فى الإفلات من إسحاق ورجاله..

كانت الرحلة إلى (حلة حلبى) مرهقة، ولم تحقق لى ما كنت أحلم به من الانفراد بسارة، فقد وصلنا إلى تلك البلدة الجميلة التى تبدو مثل زهرة بيضاء مطلة على البحر، أرشدنا سائق الحافلة إلى نزل صغير (موتيل) فرنسى المظهر تونسى الضيافة، نزلنا فى غرفتين منفصلتين، تواعدنا على الغداء، كانت سارة ترتدى زيًا مغربيًا جميلاً، أقبلت نحوى فى دلال، جلست أمامى، جاء الساقى ووضع لنا أصنافا متعددة من الطعام، من بينها إناء به لبن رايب وإناء كبير به باذنجان، ولا أدرى سببًا لحب أهل تونس فى الباذنجان واللبن، ما كدنا نتناول الطعام حتى جاء رجل فى رداء مغربى وطاقية حمراء، وجلس على مائدة بجوارنا، راح ينظر إلى سارة فى نهم، شعرت أن كرامتى تهان، قمت إليه ولكمته بقسوة فى وجهه، نشبت معركة بينى وبينه، بعد قليل جاء آخرون واشتدت المعركة، بعض الرجال معى وآخرون ضدى، تحمست للدفاع عن كرامتى، جاء شرطى يرتدى زيًا عسكريًا غريبًا، انفض الجمع، تلفت إلى سارة لم أجدها، جريت إلى حجرتها لم أجد لها أثرا، عدت إلى عامل الفندق نظر نحوى فى دهشة وهو يقول :

- لقد مضت مع زوجها .. كنت أظن أنك تعرفه.

عدت إلى غرفتى لأبحث فى لهفة عن حقيبتى، وجدتها، وعندما فحصتها لم أجد شيئًا فقد، كل المال والأوراق كما هى، سمعت دقًا على باب الغرفة، وعندما فتحت الباب وجدت رجل الشرطة أمامى، لم ألاحظ من قبل أنه رجل مسن، قلت فى ضيق :

ـ هل عادت؟

نظر نحوى رجل الشرطة فى عطف وهو يقول :

ـ من هى يا بنى .. جئت اطمئن عليك، الذين كانوا يتشاجرون معك من جماعات تعمل ضد الحكومة.

أجلسته وأنا أحاول أن أفهم منه، وعقلى لا يريد أن يعمل، وكأننى أعيش فى حلم لا أملك قيادته، قلت :

ـ جئت هنا ومعى فتاة اسمها سارة.

قال الرجل فى طيبة :

ـ هل تنادى على الساقى لكى يحضر لنا براد الشاى الأخضر .

أسرعت وطلبت له الشاى الأخضر، عندى أمل أن أسمع منه توضيحًا لما حدث، على الرغم من أن عقلى يدور شريط تحليل الأحداث، وأعتقد أن لا شىء يحتاج إلى إيضاح أو شرح، جاء الساقى بمائدة الشاى، ومجموعة من الأكواب والأطباق وبراد كبير، وقال وهو يشير إلى رجل الشرطة:

ـ حاج وهيب رجل طيب صالح .. أرجو أن تسمع كلامه.

انصرف الساقى، بدأ الحاج وهيب فى (صناعة الشاى) على طريقته وأنا انظر إليه، كنت أود أن ينصرف؛ لأنه يتصرف ببطء شديد، قدم لى كأسًا صغيرًا بها شاى ساخن، قال :

ـ هل تقول إنك جئت إلى هنا معك فتاة؟

قلت بسرعة:

- نعم واسمها سارة.

قال وهو متأمل كأس الشاى الذى فى يدى:

- ولكن الفتاة التى رأيتها اسمها فاطمة، وهى من بلدة بعيدة عن هنا.

قلت فى قلق :

- عندما دخلت أنت إلى الفندق هل رأيتها فعلاً؟

قال الشرطى :

- هل قالت لك شيئًا أغضبك أم أخذت منك نقودًا؟

قلت بسرعة:

- لا .. ولكن ..

قال الشرطى :

- اسمع يا ولدى، أنت ولد طيب وقد طمعت فى أشياء لا تخصك، ارجع إلى بلدك فأنت فى موقف لا تحسد عليه، وسوف أظل معك حتى تعود مع الحافلة القادمة، اذهب إلى تونس ثم من هناك عد إلى بلدك.

لم أعلق، ولكن ما يقوله الشرطى ليس أمامى إلا أن أفعله، فهل أظل هنا من أجل نزوة لم تكتمل، وما هى سارة حتى أهتم بها إلى هذه الدرجة، وهل هى سارة أم فاطمة، هل هى يهودية أم من قرى صحراء تونس، .. أفقت على صوت الشرطى:

- الرجل الذى يدفع بنفسه فى المشاكل لا يصح أن نبكى عليه، أو حتى نساعده .. إنه لم يعرف قواعد اللعبة التى لا تتغير أبدًا.

ظل الشرطى يتكلم وأنا أنصت إليه لحظة ثم أغفو لحظات كثيرة: حتى سمعنا صوت الحافلة، أسرع الشرطى ليدفعنى لركوبها، حاولت أن أدفع نفقات الطعام والإقامة ولكن الشرطى رفض وأيضًا الساقى، أصر على ألا أدفع نقودًا، يكفى أن نتذكرهم، ربما عدت إلى هنا فى ظروف أفضل .

وما كدت أستقل الحافلة حتى استغرقت فى نوم عميق، وكانت داليـــا تحكى بصوتها المنغم عن حكايات جدها فى سيبريا .

# الفصل السادس

عدت إلى القاهرة، كان معى مال كثير، كان (أبو ياسر) قد تنازل عن جزء من المال الذى حملته له معى من تونس، قال هذا ليس أجرًا إنما هو مقابل المصروفات التى تحملتها، لم أكن قد تحملت الكثير من النفقات ما عاد ما تحملته من خوف وذعر وإصابة ظلت عالقة بذراعى حتى اليوم، وبعض الجروح الغائرة فى وجهى ورأسى، وذكريات مؤلمة ظلت عالقة بعقلى من أيام الحبس على يد إسحاقالرهيب فى تونس، وذكريات النصب التى وقعت فيها على يد سارة التى أنفقت عليها بالفعل مبلغًا ليس هينًا ولا بسيطًا، عدت إلى القاهرة وإلى التسكع فى شارع فؤاد المسمى بشارع ٢٦ يوليو حاليًا، جلست فى مقهى البستان حيث يجلس عشرات من الوافدين على ضيافة مصر من العرب الأشقاء، واستمعت إلى مئات القصص البطولية لهؤلاء الأفذاذ الذين تركوا ديارهم، لأنهم مواطنون أحرار لم يقبلوا الخضوع للحكام الفاسدين، حاولت أن أعرف كيف ساهم هؤلاء المناضلون فى تحرير شعوبهم وهم يجلسون طوال النهار على مقهى البستان، ثم فى الليل يجلسون خلف مقهى ريش لاحتساء

البيرة والنبيذ وأشياء أخرى، قال لى أحدهم أنه هرب من اليمن بعد الثورة لأنهم لا يريدونه هناك مع أنه ساهم فى القيام بالثورة، وقال لى آخر إنهم فى سوريا لا يقبلون أمثاله من دعاة الوحدة العربية، ولأن أخى يعيش بالفعل فى سوريا، وتحديدًا فى حلب، فإنه أخبرنى أن معظم الشعب السورى يعشق الوحدة، ولكن رفيقى المناضل يقول إنه وحده هو الذى ينادى بالوحدة، ولأننى أصبحت من المناضلين فإنهم جميعًا يتحدثون إلى بحرية مطلقة، وأنا أكاد أكون مثلهم، استدعانى الوزير فأسرعت وقد طال اشتياقى للعمل، وخفت أن أتعود على البطالة والكسل خاصة إننى استأجرت شقة متواضعة عبارة عن حجرة واحدة وملحقاتها وسط المدينة، وبدأت أعشق حياة الفراغ والتلهى بالفساد، بل إن شقتى الصغيرة كانت مركزًا لتجمع بنات الهوى من كل لون، وكن يسترحن بها وتقوم كل واحدة منهن بأعمال المنزل يومًا فى الأسبوع، وكنت أجد ملابسى نظيفة وطعامى معدًا بشكل شهى، ولم أكن أدفع فى مقابل كل ما أحتاجه منهن ومنها العلاقات العاطفية، أبلغت داليــا فى موسكو بمكان إقامتى ورجوتها أن ترسل لى بعض متعلقاتى هناك، ولم أتلق ردًا منها، وأيقنت أنها أهملتنى ولم تعد تذكرنى، وظنى أنها تعلقت بشاب آخر، لم أستطع إقامة علاقة دائمة مع فتاة، ولما قابلنى الوزير قال فى صراحة وتجهم :

ـ لم أكن أتصور أن حياتك ستصبح هكذا، مثل قشر اللب لا فائدة منها بقدر ما تتركه من آثار قذرة .

أزعجتنى كلمة الوزير، وشعرت بصدق كلماته، خاصة أننى لم أسمع عنه وأنا أتردد على المقاهى ما يشير إلى مآخذ على تصرفاته، وكان الجميع فى الشارع خاصة المناضلين الشرفاء فى المقاهى يتحدثون عن أفعاله بكل اعتزاز، قلت متأثرًا :

- سوف أفعل ما تأمرنى به معاليك .

ضحك لأننى استخدمت كلمة ( معالى ) التى لم يكن يحبها، قال:

- هناك ما تفعله ولكن فى دمشق.

وسافرت إلى دمشق، أرسلت قبل سفرى مبلغًا من المال إلى أبى وأمى وجدتى، خاصة وقد علمت أن الثورة أخذت منهم الثروة والسلطان، ولم تترك لهم إلا الدار الكبيرة، وجلس أبى فى الدار ينفق من إيراد قليل بقى له، ولكنه لم يتغير مع تغير الأيام، وظل هو الرجل الكريم الذى يحب أن يلجأ إليه الناس ويعينهم .

كانت مهمتى فى دمشق ليست صعبة، ولكن الصعوبة جاءت من عدم قدرتى على ترك ما تعودت عليه فى القاهرة، كنت أنام وأصحو كما يحلو لى، لم تكن هناك أمور مهمة تشغلنى، البنات من حولى أشكال وأصناف، المقاهى تقدم للكسالى من أمثالى كل شىء من مشرب ومأكل وراحة وأيضًا الحمامات التى تغنيك عن الذهاب إلى البيت، والمقهى حياة متجددة لأمثالى من زبائنها الكرام، موجات من البشر قادمون جالسون ذاهبون عائدون، ولكل منهم حكاية، ولكل منهم سلوك يلفت نظرك، المقهى يزودك بكل ما تحتاج إليه

من معلومات وفرجة، تسمع فيها ما لم تسمعه فى مكان آخر، ولن تسمعه فى أشد الأماكن حرية، وكل شىء يباع ويشترى وأنت جالس على المقهى من أول الملابس إلى قطع غيار السيارات إلى الكتب الممنوعة وغير الممنوعة، بل والخدمات أيضًا، فأنت تكوى ملابسك وتصلح حذاءك وتقص شعرك، وإذا أردت إرسال ما يجب إرساله إلى المنزل تفعل ولا حرج، وأحيانا يساعدك الساقى فى الشراء وفى إرشادك لأفضل الأسعار، بل فى إقراضك أيضًا المال الذى تريده فأنت عميل المقهى وحسابك مضمون، وعلى الساقى أن يكون محل سرك فيرد عنك من لا ترغب فى رؤيته أو فى سماع صوته، ويزودك بكل جديد من أخبار من تحبه أو تكرهه، كل شىء عند الساقى بلا مقابل، فقط لزبائن المقهى، لهذا أول ما بحثت عنه عند وصولى إلى دمشق، المقهى المختار الذى سيكون محل إقامتى على الرغم من أنهم اختاروا لى فندقًا فخمًا مع التوصية بالاهتمام بطلباتى مهما كانت، .. فى أول ليلة ذهبت فيها إلى المقهى همس الساقى فى أذنى:

ـ هناك من يراقبك.

ضحكت بصوت عال، لا يعرفنى الساقى، فكيف عرف أننى مراقب أو غير مراقب، قلت إنه يقول هذا على سبيل تقديم طلب الصداقة، وعربون على المحبة التى يجب أن نتبادلها، قلت فى جدية شديدة :

ـ شكرًا، ما اسمك؟

قال : اسمى هدير من حلب الشام.

قلت مشجعًا :

- حسنا يا هدير .. ولو أن اسمك يبدو غريبًا هات ما عندك من مشروبات ساخنة .

ابتسم وذهب دون أن يسألنى المزيد، جلست هادئًا، أعلم أنهم بالفعل سيراقبوننى، لا أحد يعلم عن مهمتى هنا شيئًا، ولكن أكثر أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية باتوا يسمعون عنى على الأقل، وبعضهم يعرفنى، ومن المتوقع أنهم أحسوا أننى هنا من أجل مهمة تخصهم، ولأننى بعد مهمتى فى تونس قد تعودت على مثل هذه الأمور، فإننى لم أعد أبالى، .. يا كم أوحشتنى ( داليا السيبيرية)، وكم أوحشتنى موسكو التى طردتنى بعنف لأننى أقيم صلاتى بحجرتى، ومع هذا فإن الجو البارد المظلم فى كثير من فصول العام قد أوحشنى كثيرًا، كنا أنا وداليا نجرى فى الشوارع حتى ندخل (حديقة الفودكا)، كما كنا نسميها لكثرة من يجلسون فيها ويشربون الفودكا الشهيرة والرخيصة، وهى ليست المشروب الذى يشربه السادة فى فنادق المدينة أو فى القصور والحفلات الرسمية، كانت داليا تحرص على إحضار الشاى الساخن، براد الشاى المعلق على الموقد، والسيدة المسنة وهى ترنو إلى البراد الذى يتصاعد منه البخار، جاء ( هدير ) الساقى وهو يحمل كوبًا كبيرًا من السحلب الساخن، وضعه أمامى وهو يقول : لم أتشرف باسم سعادتك.

قلت مازحا :

ـ وهل يهمك الاسم يا أستاذ هدير، إن هدير اسم فتاة فكيف يسمونك باسم فتاة يا رجل.

قال فى جدية :

ـ خافت أمى من الحسد، فأطلقت هذا الاسم، وإن كان الناس يسموننى بأبى الفتوح، وأحيانا ينادوننى (بأبو إبراهيم) .. أيهما تختار نادنى به .

قلت :

ـ سوف أناديك (بأبو إبراهيم) .. إذا أحضرت لى رغيف اللحم المشهور من عند جيرانك .. فأنا أشم رائحته هنا.

انطلق مسرعًا، حاولت أن أتبين الوجوه من حولى، كانوا قلة من الرجال ذوى الشوارب يمسكون بمباسم النرجيلة فى استمتاع واضح، كل منهم يبدو أنه مشغول بحاله، بعضهم كان يتحدث بلهجته الشامية، وبصوت عال ولكن بكلمات وجمل متقاطعة؛ لأنه هو أيضًا مشغول بالنرجيلة، جاء أبو الفتوح برغيف اللحم داخل وعاء نحاسى جميل النقش، وضعه أمامى ثم انسحب ليحضر دورق المياه، وسألنى إذا كان من الممكن إحضار قارورة شراب، وقبل أن أجيبه أحضر هو القارورة ومعها كوب من البلور الذى يعكس أشعة النهار، ثم قال:

ـ هل أنت واثق أن كل شىء على ما يرام؟

أومأت برأسى، كنت جائعًا فأكلت بشراهة حتى انتهيت من كل ما فى الوعاء، بعد ما مر بى من الأحداث لم تعد للكلمات نفس المعانى، إنما للكلمة الواحدة أكثر من معنى، لابد أن تفهم كلماته بمعنى محدد، لأنه لا يهم فى النهاية، إنه مجرد ساقى يريد أن يجعلك تعرف أنه صديقك وأنه فى خدمتك وأنه لا يعرف إلا الصدق، وفى نفس الوقت يقول نفس الكلمات لغيرك، حتى تعرفه أنت حق المعرفة فى النهاية، قلت للساقى:

- أريد أن أستأجر سكنًا قريبًا.

قال:

- أعرف لك سكنًا جميلاً ورخيصًا، ولكن كم ستمكث هنا؟

قلت:

- عام أو أكثر ربما ثلاثة أعوام.

هلل وجهه فرحًا، وقال فى حماس:

- إذًا تسكن فى دار الوالى.

ضحكت وقلت:

- الوالى مرة واحدة، أنا أريد سكنًا متواضعًا نظيفًا، وجيرانه أناس طيبون.

قال وهو يقترب منى أكثر:

- يا رفيق .. ماذا تعمل غير الجلوس على المقهى؟

قلت وأنا أنظر إلى عينيه :

ـ فى التجارة .. اشترى ملبوسات شامية وأبيعها.

يبدو أنه غير مصدق، ولكنه قال :

ـ فى المساء سيأتى أبو ياسين .. هو تاجر كبير للملبوسات .. إنه صديقى.

انتهى الحوار بينى وبين الساقى، وانشغل هو بعمله، وجلست أنا أفكر فى كيفية أداء مهمتى، ولا أدرى لماذا اختارونى لهذه المهمة .. وهل سيظل عملى هكذا مجرد حامل رسائل، لم اعد صغيرًا حتى استسلم هكذا لمن يأمرنى .. يجب أن أتخلى عن السلبية، وقفت، مضيت فى شوارع دمشق حتى السوق الشهيرة رأيت الكثير من محلات الأقمشة والملبوسات، يبدو إننى صدقت ما قلته للساقى فى المقهى، توقفت أمام بعض محلات الملبوسات، دخلت واحدًا منها، وبدأ البائع يعرض ما عنده، سألنى فى البداية :

ـ أنت مصرى؟

أجبته دون حماس، قال البائع:

ـ أخى هناك يمتلك محلاً فى شارع عدلى.. اسمه (أبو هشام).

سألته بدون مبالاة:

ـ اسمه أم اسم المحل.

قال فى تأكيد :

- بل اسم المحل .:. يمكنك زيارته إذا كنت من مصر فعلاً.

سألته، تناقشنا، الأجود، الأرخص، الأكثر إقبالاً من الزبائن، والرجل يشرح ويقول ويتحمس وينهمك، تعبت وانصرفت مع دهشة البائع، لم أهتم، أصبحت أعرف أسماء الملبوسات وأنواع الأقمشة وأسعارها، وأهم المصانع، معلومات مفيدة ربما تفيدنى .. فى المساء عدت إلى المقهى، ودار بينى وبين (أبو ياسين) تاجر الملبوسات مناقشات كثيرة، كان الساقى يتسمع أحيانًا، واقتنع أبو ياسين أننى فعلا أعمل فى تجارة الملابس، قرر أبو ياسين دعوتى على العشاء فى داره، تمنعت قليلا ثم ذهبت معه، جلسنا فى حديقة داره، كان هناك ثلاثة من الرجال جلوسًا فى انتظاره، تعارفنا، الجميع من تجار الملابس، بعد قليل جاء الشراب وبدأت السهرة التى لا يمكن نسيانها، بدأ الرجال الأربعة العزف والغناء، أعشق الغناء الشامى القديم، وأعشق صوتى الناى والعود، .. يا ليالى الأنس لا تهربى منا .. مضت الساعات كالحرير الناعم، مع الأصوات الرائعة التى تغنى للحياة والحب والجمال، قال الرجل ( أبو ياسين ) فجأة :

- ما الأوامر؟

أخذتنى المفاجأة، توقف الغناء، اعتذر الرجال وانصرفوا، وبقيت مع (أبو ياسين)، لا أدرى ماذا أقول له، على الرغم من خبرتى فى توصيل الرسائل أو الأوامر كما يسمونها، فأنا كثير الارتباك أحيانًا، أحاول أن أتشجع وأن أكون قويًا ولا أخاف، بل فى كثير من الأحيان

أتخيل نفسى وقد تحولت إلى مقاتل شجاع، أو فى معسكرات الأعداء، وأنزل بهم أشد العقاب، وأقاتل، وفجأة يرق قلبى وأقول أن للناس جميعا حق الحياة، لماذا القتل .. يسألنى أبو ياسين ثانية وهو يبتسم :

- ما الأوامر الجديدة؟

أتلعثم وأردد بعض العبارات التى تدل على عدم فهمى، اضبط نفسى متلبسًا بالتخابث، أسرع وأقول :

- لم أفهم ماذا تقصد.

بدأ الغضب واضحًا على وجه (أبو ياسين)، وقال فى حسم:

- قل يا رجل .. فأنت فى أمان وأنا من جئت من أجله

قلت وأنا أحاول أن أتأكد:

- لا أدرى ماذا تقصد؟

قام أبو ياسين، وأحضر ورقة صغيرة ووضعها أمام وجهى.

- معك مثلها.

قلت بسرعة : لا أحمل ورقًا لا مثلها ولا غيرها.

قال وقد وضع الورقة فى جيبه:

- إذًا أنت من أرسلوك.. فلا تضيع الوقت وقل ما عندك.

- أصدقك القول ليس عندى ما أقوله.

خرج من الغرفة، كان الفجر على وشك الآذان، غاب فترة، جلست أفكر، هل أبلغ هذا الرجل ما أحمله من رسالة، وأعلم بخطورة أمرها وما سوف يترتب عليها من علاقات بين مجموعة من الدول، وأعلم أيضًا أهميتها بالنسبة للمنظمة، كنت قد علمت أن بعض عناصر الأخوان الذين فروا من مصر يقومون بدور مضاد، وأنهم استطاعوا التسلل إلى سوريا وإلى معظم البلاد العربية، وأصبح لهم العديد من الأنصار، ازداد حرصى لإيمانى الشديد بأن ما تقوم به المنظمة يجب ألا يتعارض مع الأنظمة الحكومية، جاء الرجل أبو ياسين وهو يحمل صينية الشاى، ، وبعض المأكولات الخفيفة، وقال:

- هل صليت الفجر .. لقد أذن.

قلت:

- سوف أصلى فى دارى.. والآن أستأذن فى الانصراف.

أبدى الرجل غضبه وأقسم أن أشرب الشاى وأتزود ببعض اللقيمات، وفعلا شربت الشاى، وانصرفت على أن نلتقى بعد صلاة العصر فى المقهى..

كان الشارع باردًا، الجو لا يزال يلفه ضباب الصباح الباكر، بعض الرجال بملابسهم الثقيلة يسرعون، بعض السيارات الصغيرة تمر بجوارى، عقلى يغلى، لا أدرى هل أخبر الرجل بما أعرفه أم أتغافل عنه، كانت العلامة التى أخبرونى بها أنه بائع ملابس

سورية، وإنه سيقابلنى فى بستان له قريب من المدينة بعد دعوة على العشاء، وإنه سوف يرانى فى المقهى ويقول :

- إن النساء لم تعد تهوى الملابس الواسعة .

استعدت كل ذلك فى ذهنى، لقد دعانى أبو ياسين على العشاء، ولكن فى بيته، ولم يقل عند دعوته لى إن النساء لم تعد تهوى الملابس الواسعة، ولم نذهب إلى بستان، فكيف أثق بالرجل، قال فعلا ما هى الأوامر، ولكن هذه العبارة لا تكفى، شعرت بالنوم، كانت أحلامى مملوءة بالدماء والجرى وأصوات متداخلة لأناس يتعذبون، صحوت من نومى القلق، مخنوق الدمع، محطم الضلوع، قررت أن أذهب إلى المقهى، وهناك كان الساقى قد أعد لى رغيف اللحم، .. قلت للساقى:

- وهل عندك أخبار. ؟

قال الساقى :

- جماعة الأمس يسألون عنك.

انصرف الساقى، وجلست أنظر إلى الطعام دون قابلية للأكل، تمنيت أن أقوم بعمل ما، أن أقود سفينة حربية، أو طائرة، أخذت أستجلب هذا الخاطر، رأسى يدور وأنفاسى تتلاحق، أشعر بالفشل، لماذا لا أكون شخصًا إيجابيًا وأن أصنع المعجزات، إننى رئيس جماعة لاستكشاف منطقة مجهولة فى جنوب أستراليا، لى صديق يعيش هناك، بل يعيش هناك أكثر من صديق، سألتنى زوجة

إبراهيم أن أزورهم فى سيدنى، تمنيت أن أذهب إلى سيدنى، جاء أبو ياسين، ألقى السلام وجلس بجوارى، جاء الساقى وأحضر لى نارجيلة، أخذ أبو ياسين مبسم النارجيلة، صوت النارجيلة قطع استرسالى فى أحلامى التى بدت ساعتها جميلة، أستراليا بها غابات كثيفة وزراعات خضراء عالية، وأيضًا بها جبال، سلسلة جبال تفر أمام عينى واحدة تلو الأخرى، قال أبو ياسين أن الجو حار وإنه يريد الذهاب إلى البستان ويتمنى أن أذهب معه، أجبته فى حسم :

- لا أريد .. أريد الذهاب إلى أستراليا.

ضحك الرجل، واهتزت بطنه؛ لأنه أخذ يضحك بشدة، قلت :

- ما الذى يضحكك فى السفر إلى أستراليا.

قال الرجل وهو يضع المبسم جانبًا :

- إن النساء لم تعد تهوى الملابس الواسعة .

يبدو أننى ارتبكت، وواصل هو ضحكاته الرنانة، جاء الساقى وقال:

- هناك من يريدك على الهاتف .

أشار نحوى، أسرعت ملدوغًا نحو الهاتف الذى كان موضوعًا فى مدخل المقهى، أمسكت بالسماعة، سمعت الصوت يقول فى لهاث واضح :

ـ لا تخبره بشىء

سكت الصوت، وضعت السماعة، نظرت نحو الساقى الذى أسرع نحوى وهو يقول فى همس :

ـ لا أعلم من هو .. قال إنه يريدك لأمر مهم

تلفت حولى، صار الناس جميعهم يتخابرون، ويتلصصون، صاروا جميعا وكأنهم فى سباق لكى يقتحموا عقلى، هل أرجع إلى بلدى معلنا فشلى فى أداء مهمتى، لماذا لم يخبرونى بما سوف ألاقيه، من هذا الرجل الذى يجلس بجوارى ويبدو متفائلاً ومطمئنًا، من يكون الساقى وإلى أى جماعة يعمل، من الذى كلمنى، وكيف عرف بوجودى هنا، وكيف عرف أن الرجل سوف يقول الجملة التى تجعلنى أبوح له بالمهمة التى جئت من أجلها، جلست محاولا أن أستجمع قواى، أن أفيق، كل شىء من حولى لم يعد مفهومًا، أنا نفسى لم أعد أفهم نفسى .. عندما كنت طفلا تصورت أننى عندما أكبر سوف أعرف كل شىء، سوف أكون واثقًا من نفسى، و ها أنا قد كبرت وصرت رجلاً، ولكنى لا أزال غير واثق من شىء، بل ازداد الأمر تعقيدًا داخل عقلى، لم أصبح كما تمنيت، لم أصبح رجلاً بعد، .. قال أبو ياسين :

ـ هل تأتى معى للعشاء فى بستانى؟

كيف أكون حاسمًا، أقول لا، أو أقول نعم، كيف أكون أنا، أنا لم أعد أنا، نظرت نحوه وقلت :

- لن أذهب معك .. لدى موعد مع أحد تجار الأقمشة.

انصرفت مسرعا لا أدرى إلى أين، عند السوق الكبير توقفت، كانت رغبتى فى الفرار هى التى توجهنى، قابلتنى دمشق الأموية، بأبنيتها ذات الرائحة القديمة، استرحت بعض الشىء، لم أصل إلى حل يريحنى، هل أخبر الرجل أو أبتعد عنه، وضع يده على كتفى استدرت كان أحد الرجال الذين تعرفت عليهم عندما كنت مع (أبو ياسر)، قال :

- ماذا تفعل هنا؟

تلعثمت مجموعة من الكلمات، أمسك بى الرجل وقال :

- أنت ضيفى الليلة .

قلت باسمًا :

- ليس الليلة .. فرأسى مشحون بأفكار تعيسة.

قال وهو يدفعنى داخل سيارة كانت تقف بالقرب منا :

- سوف تنسى تلك الأفكار .. فقط تعال معى.

أخبرنى الرجل وهو يقود السيارة أنه يقيم فى دمشق مع أسرته وأنه يسافر إلى بيروت كل أسبوع، وأنه يعمل فى تجارة الملابس وله فروعه بالقرب من حلب، وصلنا إلى منزله الذى يتكون من دور واحد له حديقة تبدو واسعة، عندما دخلنا ومررنا بالحديقة، وكان الليل قد بسط جناحه الأسود، لم أتبين ما فى الحديقة من أشجار ولكنى ميزت رائحة زهرة البرتقال التى أعادتنى إلى عالم الطفولة

وأعطتنى بعض الثقة فى النفس، تخطينا عتبة الدار، دخلنا إلى غرفة واسعة، كانت مفروشة بأثاث عربى، جلسنا على الأبسطة، والرجل ينادى :

ـ يا عبد الرحمن .. يا عبد الرحمن.

ظهرت فتاة فى أول الغرفة بالقرب من بابها وقالت :

ـ الطعام جاهز يا أبى.

خفف الرجل من بعض ملابسه وهو يقول :

ـ كن على راحتك، الدار دارك، وأنت لست ضيفا .

فعلت كما فعل الرجل، وقد أحسست أننى أستعيد بعض نفسى الممزقة، وجلست على راحتى، وجاءت الفتاة بالطعام، لحم وثريد وأرز، وضعته على بساط مفروش على أرض الغرفة، كانت رائحة القرفة تتصاعد مع بخار اللحم المسلوق، تربع الرجل وهو يشير نحوى:

ـ هذا عمك أبو محمود المصرى.

تذكرت الاسم الذى كان ينادينى به أبو ياسر، قالت الفتاة فى مرح :

ـ أهلا يا عمى.

ابتسمت عندما رأيت ابتسامتها وكأنها تستنكر أننى أبو محمود، وشكلى لا يعطينى هذا اللقب، قلت :

- وأنت تلميذة نجيبة حتمًا.

قالت فى خجل :

- تركت المدرسة منذ زمن.

قال الرجل :

- هى الآن تساعد الأم من أجل أخواتها.

كنت أود أن أطيل الحوار مع الفتاة، أدرت مجموعة من الأسئلة فى رأسى، ولكن نظرة الرجل نحوى، ورغبته فى التفرغ للحديث معى، جعلتنى أكتفى بالنظر إليها، حتى مضت خارجة، قال الرجل :

- لماذا لا تأكل .. جرب هذا الطعام ابنتى تصنعه بمهارة ورثتها عن أمها رحمها الله.

بدأت أتناول الطعام، قال الرجل فى جدية هامسًا :

- أود أن أدعوك لزيارة بستانى قرب حلب.

تذكرت الرسالة التى أحملها .. الرجل يعمل فى تجارة الملابس، ويدعونى للعشاء فى بستانه، هل هو الرجل المطلوب توصيل الرسالة إليه، قال الرجل وهو ينظر نحوى:

- النساء لم تعد تهوى الملابس الواسعة .

انتبهت إلى ما قاله الرجل، قلت فى تخابث :

- إنهن الآن يرتدين السراويل الضيقة.

ضحك الرجل فى قهقهة عالية، ثم قال :

- نريد أقمشة من نوع جديد تثير الرجال.

قلت وقد أيقنت أنه الرجل المطلوب :

- القماش موجود والثمن سدد، والمطلوب نقله فهل عندكم من يقدر على هذا؟

قال وهو يفكر :

- لم تعد الأمور كما كانت .. ومع هذا لا يمكن ترك القماش حتى يتلف، أعطونى فقط أسبوعين.

قلت وأنا أتنهد بارتياح :

- ولكن ماذا عن رجل المقهى، أبو ياسين.

شرعت فى تناول الطعام وإحساسى إننى انتهيت من مهمتى، أريد الآن أن ألهو فى دمشق، وأن أزور تلك الأزقة القديمة التى سمعت عنها، وأرى أشهر مساجد الشام، وأرى حدائق التفاح، حكى لى الرجل قصة رجل المقهى، كيف كنت سأبلغه رسالتى لمجرد صدفة الأقوال التى قالها، وأشار إلى أن الأمور فى المقاومة لم تعد صوتًا واحدًا، داخلها الكثير من التوجهات التى اختلفت فيما بينها، وإن هناك العديد من الطوائف لكل منها أسرارها وأهدافها ورجالها، وأشار الرجل إلى أن الوزير فى مصر لديه العلم الكامل بهذه الأمور.

اقترح الرجل أن أقضى إجازة بحلب؛ لأنها الأجمل جدًا وأكثر هدوءًا، وقال إنه سوف يتكفل نقلى إلى هناك ..

أمضيت الليل مسهدًا، لا أدرى لماذا داهمنى إحساس بالفشل فى أداء مهمتى، عالم المقاومة ليس واحدًا إنما هو عوالم مختلفة بل متضاربة، فهل هذا الرجل صادق، هل هو الذى يجب إبلاغه بالرسالة، إن وقوع الرسالة فى أيدى أعداء (أبو ياسر) سوف يجر عليه الكثير من المتاعب، ثم إن السلاح سوف يقع فى أيدى هؤلاء، فى الصباح كانت السيارة تشق الطريق إلى حلب، الكثير من المدن و القرى وأيضًا منحدرات ومنخفضات جبلية وسهول، إنها تضاريس متضاربة ومختلفة وكأنها تعبر عن ما يدور داخل عقلى، أحس الرجل أن مزاجى غير معتدل، أخذ يقص كيف التحق بالمقاومة، حكى لى إنه كان طفلاً عندما هاجم اليهود قريتهم بالقرب من بئر سبع، فى البداية كان اليهود يعيشون فى نفس الحارة، ولكن فجأة حضر الكثير من الجنود الإنجليز، ثم راحوا يجمعون اليهود فى أماكن محددة، بدأت عربات صغيرة تجرها الخيول تعبر حارات القرية التى أصبح معظم سكانها من أهل فلسطين، وعندما تتوسط العربة الحارة تنفجر بقوة وتدمر الكثير من الدور .. نهرب جميعًا إلى أطراف القرية حيث كان هناك يهود يحملون المدافع الرشاشة التى يطلقون منها النار بشكل عشوائى، فررنا من القرية، مات أبى وجدى، يقول الرجل بتأثر، ثم مات أخى الأصغر عطشًا، سرنا مسافة طويلة حتى أمرتنا الأم أن نتوقف، .. وهكذا مضى الرجل يحكى فى تأثر حكاية هجرة وشتات أسرته، حتى تمكنوا من الوصول إلى حلب، وهناك عاشوا، ولكن كانوا جميعا يحلمون بالعودة، يقول الرجل:

. أعطانى جدى مجموعة من الأوراق مدسوسة فى حافظة جلدية، كانت، كما عرفت بعد ذلك، مستندات تدل على ملكية أسرتى للبساتين والحقول والمنازل فى دير كرم .

هززت راسى معبرًا عن تأثرى، ولكن هذه القصة سمعتها من قبل، كان زميلى فى الدراسة من غزة ومن أسرة ثرية، كان يهزأ بهؤلاء الذين هربوا تحت ضغط الموت، أما زميل آخر فقد كان من قرية قريبة من ( أريحا ) كان يقول إن الجيش العربى لم يحارب فى معركة ١٩٤٨، بل انهزم بشكل مشين، ولم أهتم ساعتها بتصديق أحدهما عن الآخر، لأن كلا منهما يتهم الآخر بالخيانة، وعندما ذهبت إلى موسكو، كان عددًا كبيرًا من الطلاب الذين قابلتهم من فلسطين وكانوا يدرسون علوما متنوعة، ولكن يجمعهم جميعًا هَمّ الغربة والهجرة، والجميع يحلم بالعودة، وإن كانت العودة لها طرق متعددة بعدد هؤلاء الطلاب، فلم أجد إجماعًا على رأى واحد، وإن كانوا جميعًا يجمعون على تبادل الاتهامات، ويتصور كل منهم أنه زعيم وإن له رأيًا صائبًا سيعيد الحق إلى أهله، وكل اجتماعاتهم تنتهى عادة بالمشاجرات، نظرت إلى رفيقى فى السيارة الذى أبلغنى أننا وصلنا إلى بستانه، وهبطنا من السيارة وقد بلغ منى التعب مبلغه، خاصة التعب الذهنى، فقد شملنى صداع رأسى حاد، تحسنت حالتى قليلاً مع السير على الأقدام حتى وصلنا إلى ما يشبه الاستراحة الريفية، وجلسنا وكان طعامًا ريفيًا شهيًا، ورجل عجوز يقدم لنا القهوة العربية التى أحبها كثيرًا، بعد الراحة، شعرت أننى أود ترك الرجل والسير بمفردى حتى أصل إلى حلب،

ولكن الرجل أصر على أن يقوم بتوصيلى إلى المدينة مهما كانت الظروف، حاولت إقناعه و لكنه أصر، حاولت النوم فى السيارة هربًا من أفكارى المتزاحمة، وصلنا إلى وسط المدينة، المدينة هنا جميلة ورائحة الزهور تملأ المكان، والدور ليست عالية ولها ألوان هادئة، شعرت بالراحة الشديدة، وتذكرت أخوالى، الذين عاشوا هنا فى حلب .. يا حلب الشام .. أين هم الآن، أرشدنى الرجل إلى أحد الفنادق التى تبدو صغيرة، وأراد أن يؤكد إقامتى ولكنى رفضت، كنت أريد أن أكون بمفردى، سألنى الرجل إن كان بإمكانه الحضور لاصطحابى لحضور حفل للموسيقى العربية، ولكنى اعتذرت بتعبى، وإن كنت أرغب فعلا فى حضور هذا الحفل، أرشدونى إلى غرفتى، ما كدت أرقد على سريرى حتى فاجأنى جرس التليفون، ولكى تكتمل المفاجأة كان صوت الوزير يرن فى أذنى :

- لماذا تأخرت؟

تأخرت عن ماذا، ألا تكفى الألغاز التى فى رأسى حتى تكتمل بهذا السؤال، قلت متلعثما:

- لم أتأخر يا أفندم.

ضحك وقال:

- إذًا سوف أرسل لك من يحملك عندى حالا.

وما كدت أضع سماعة التليفون حتى سمعت دقًا على الباب، كان بالباب رجل طويل القامة، قال بهدوء:

ـ السيارة فى الخارج.

مضى الرجل، أعدت ارتداء ملابسى، وهبطت الدرج وأنا أفكر، ماذا يفعل الوزير هنا فى حلب، وكيف عرف مكانى بهذه السرعة .. جلست فى السيارة، وأنا أحاول تذكر وجه السائق .. أين رأيته؟

قابلنى الوزير فى صالة الفندق، قال :

ـ لم تحسن هذه المرة أداء رسالتك.

سكت ولم أسأل أنا، .. جاء الساقى ببراد الشاى، بدأ الوزير ملء كوب زجاجى ثم قدمه لى، أخذته وأنا صامت ومهموم، قال :

ـ سنتحدث فيما بعد .. اشرب.

انتهيت من شرب الشاى بسرعة، كنت متلهفًا لسماع ما يقوله الوزير، كان حديثه يدور حول أيام طفولته، وكيف كان يحلم بأن يقود حصانًا فى الحرب ثم يصنع من عود حطب حصانًا ويركبه ويجرى به فى شوارع قريتهم، يضحك الوزير وأضحك أنا أيضًا، قال فى النهاية:

ـ نصعد إلى حجرتى وهناك نتكلم.

أسرع نحو المصعد، جريت خلفه، توقف المصعد عند الدور السادس، نزلنا دخل غرفته وجلس، جاء أحد الرجال بحقيبة تناولها الوزير، انصرف الرجل، جاء آخر حاملاً أوعية الشاى وراح يعد الشاى للوزير، أشار إلى أن أجلس، جلست، راح يقلب فى الحقيبة التى امتلأت بالأوراق، ثم أخرج ورقة بها رسم بالقلم

الأسود، أعطاها لى، أخذ فى تناول الشاى، رحت أنظر إلى الرسم فى الورقة، لم أفهم شيئًا، قال الوزير :

ـ هذه ليست سيارة ولا عروسة المولد.

صمت، تأملت الصورة من جديد، قال بعد برهة :

ـ إنه محرك لطائرة جديد .. يقولون إنه يصنع فى إحدى مصانع السيارات فى إنجلترا.

عاد إلى صمته، لم أتحرك ولم أسأل، كنت أنتظر أن أفهم، أعلم أنه رجل جاد، وأنا أثق فيه، إنه متخصص فى المدافع وليس فى الطائرات، وإن كان الآن يعمل فى أعمال مدنية تخص وزارته، قال :

ـ يجب أن نتأكد أن هذا المحرك يتم تصنيعه بالفعل، وفى هذا المصنع تحديدًا.

أخذ الوزير يشرح لى أنهم يصنعونه فى سرية تامة فى أحد مصانع السيارات الشعبية لمزيد من السرية ولعدم لفت الأنظار، وإنهم يحافظون على سريته بهذه الطريقة البسيطة، إنه محرك يتم تصنيعه داخل عنابر صناعة محركات السيارة.

أعطانى عنوان المصنع، وقال :

ـ إنهم يتركون لك حرية الحركة حتى تأتيهم بالخبر اليقين مع تصميم كامل للمحرك.

حاولت أن أذكر معالى الوزير بأننى لا أفهم فى الهندسة ولا أعرف شيئًا عن المحركات، وإن تعليمى النظرى ناقص ولم أكمله،

وكل ما صنعته بيدى كان مجموعة من التماثيل الطينية لحيوانات الحقول .. ولكنه قال وهو يودعنى للانصراف :

ـ سيعطيك حسن الأوراق التى تساعدك على دخول فرنسا.

دفعنى نحو باب الخروج وهو يكمل :

ـ بصفتك عامل ميكانيكى عاطل .. وليس معك إلا تذكرة طيران بلا عودة، وطبعًا ليس معك نقود.

خرجت من الغرفة، اندفعت نحو المصعد، وجدتنى بالدور الأرضى وعقلى يدور فى دوامة، وددت أن أبكى .. ولكن حسن هذا، وهو السائق الذى كان يقود السيارة، والذى تذكرته الآن، أحد زملاء فرقة الفدائيين بالإسماعيلية، الذى أعطانى الأوراق وقال :

ـ أين أيامك يا بطل. ؟

انصرف حسن من أمامى مسرعًا، كنت أود أن أتحدث إليه، أن ألتمس عنده بعض الأمان الذى اختفى منذ أن جئت إلى دمشق .. وحلب جميلة، و لكن يجب أن أرحل عنها فى المساء متجها إلى دمشق، ومنها إلى باريس .. فهل أنجح هذه المرة ..

# الفصل السابع

عالم مختلف، فى باريس، الحياة تجرى، المطر ينهمر، الشمس محجوبة، النساء والفتيات يسرعن الخطى وكأنهن يردن اللحاق بالقطار الذى يكاد يغادر محطة الحياة، تذكرت (توفيق الحكيم) كيف كان يعيش فى باريس، عشق الحياة وأحب بائعة تذاكر المسرح، وطرد فتاة روسية كانت تعيش معه، لكن باريس التى أراها ليست هى التى رآها الحكيم، إنها باريس الضوضاء، الضوضاء فى كل شىء، فى الأنوار التى تغطى الشوارع والميادين، أصوات السيارات الكبيرة والصغيرة، تحس وكأنك فى سوق لا تغلق أبوابها، استرحت فى فندق صغير، لم يكن معى مالا يكفى للحياة أكثر من أسبوع، لم أكد استريح فى الحجرة حتى دق جرس التليفون، وجاء الصوت الصعيدى بلهجة حادة :

- أراك بعد ساعة أمام الفندق.

انتهت المكالمة وسمعت صفير التليفون المتقطع، وضعت السماعة، والغريب أننى لم أشعر بالمفاجأة ولم أصب بالدهشة، كان الوزير

أخبـرنى أنهم يملكون الآن جهازًا للمعلومات قويًا للغاية وسريعًا، قررت أن أهبط قبل الموعد، بالدور الثانى، الفندق متواضع للغاية، هبطت الدرجات مسرعًا درت حول الصالة، كانت غرفة الطعام فى نهايتها، مقاعد تبدو قديمة و موضوعة بإهمال فى ركن الصالة أثار الفندق واسمه وعنوانه سائق تاكسى نقلنى من المطار وبلغة فرنسية شعبية أخبرنى أنه فندق متواضع ميسور الأجرة والخدمات، كان السائق يتباهى بأنه عمل فى الجزائر خلال خمس سنوات وأنه يحب العرب، لم أدخل مع السائق فى محاورة كان يهمنى أن أصل إلى الفندق وأجده كما قال، وعندما أخبر عامل الاستقبال وجعلنى أوقع على بطاقة الإقامة بالفندق وأخذ مبلغًا يساوى الإقامة أسبوعا مقدمًا، .. ابتسم عامل الاستقبال عندما رآنى أدور حول نفسى وأشار إلى المطعم وإلى الساعة التى بيده لكى أفهم أن موعد العشاء لم يحن بعد، .. خرجت من الفندق، كان الشارع الذى يقع فيه الفندق شارعًا صغيرًا، المارة به قليلون وبلاط الشارع يبدو أنه من العصور القديمة، بلاطات صغيرة سوداء، معظم الأبواب مغلقة، تبدو البيوت صغيرة مسقوفة ببلاطات ذات اللون البنى، المطر كان قد انتهى وترك الشارع مغسولاً نظيفًا، وقفت بجوار باب الفندق، اقترب أحدهم وسألهم بالفرنسية عن شىء ما لم أفهم سؤاله، نظر نحوى بدهشة ثم راح يكرر بالفرنسية سبابًا لا داعى له،.. كدت أضحك؛ لأنه ربما يتصور أننى أعرف و لا أريد أن أرشده، استدرت لمحت شابًا يرتدى قبعة سوداء ويبدو حديث السن، قال عندما لمحنى:

- جئت مبكرًا عن موعدك.

أومأت برأسى، قال:

- هيا أريك مطعمًا يقدم اللحوم بطريقة شرقية.

ذهبت معه، ما كان يعنينى الطعام بقدر لهفتى على ما سوف يقوله هذا الشاب، ظل صامتًا حتى دخلنا أحد المطاعم القريبة من الفندق، جلسنا، يبدو أنه معروف لدى عمال هذا المطعم الذين قابلوه بترحاب شديد، قال بالعربية:

- أريد أن آكل ملوخية وكباب مشوى.

ثم نظر نحوى وقال :

- وأنت ماذا تريد أن تأكل؟

قلت بسرعة :

- مثلك.

أشار إلى عامل المطعم الذى انصرف، نظرت إليه، كانت سمات وجهه تدل على أنه غير شرقى، وإن كان حديثه معى بالعامية المصرية، لكن لغته الفرنسية تبدو لى جيدة، قال :

- يجب أن تعرف بعض الكلمات الفرنسية.

قلت فى ثقة :

- إن شاء الله.

قال وهو يمسح المطعم بنظراته:

ـ أنت تعرف مهمتك.

لم أنطق، تعلمت أن الكلام يجر وراءه المشاكل، الاكتفاء بالسمع أفضل، قال :

بعد أسبوع سنتقابل هنا .. وسوف أعطيك عنوان عملك الجديد في الجنوب وليس هنا.

أومأت برأسى، قال :

ـ احفظ هذا الرقم ولا تكتبه، فإذا شعرت أنك فى حاجة إلى المساعدة اطلبنى وقل : كتل الثلج صعبة .. سوف أحضر إليك فور سماعى المكالمة .. ولا تخف.

جاء عامل المطعم ووضع الطعام، ثم راح ينظم المائدة بطريقة سريعة حاولت أن أعرف هذا الرجل الجالس أمامى، من هو، ماذا يعمل، وإن كان ما قاله يبدو أنه يعرف كل شىء عنى، وعندما ذكر الخوف، شعرت بالخجل لأننى فعلا أخاف، وخوفى يزداد عندما أكون وحدى، والخوف عندى له أشكال وألوان، وإن كان يلازمنى دوما، فى النهار وبالليل، أخاف من ركوب الطائرات والسيارات المسرعة، والأماكن العالية، ومن الطعام ومن معاشرة النساء، ومن آلاف الأشياء التى تبدو للآخرين بأنها عادية، ولكن عندى لها حساسية خاصة، حتى سؤال الناس يخيفنى، أتصور دوما أن كل الناس يريدون بى شرًا، ومع هذا أتلكأ فى اتخاذ القرار، أسقط فى بئر الخوف ولا أقدر علىَ الدفاع عن نفسى، يبدو أنه شجاعة أمام الآخرين، ولكنه فى الأساس شدة هلع وخوف، سألنى الرجل:

- لماذا لا تأكل؟

قلت فى تلعثم :

- لا أحب الملوخية.

قال ضاحكا :

- كما قالوا عنك تمامًا .. أنت تخاف من الطعام والملوخية تبدو سوداء والسواد مخيف .. لكن لا بأس كل اللحم .. أم أن هذا أيضًا لا تحبه .

قلت بسرعة :

- أنا لا آكل اللحم.

قال وهو منسجم مع ضحكته :

- ولماذا لم تقل .. أتأكل الأسماك أم الدجاج .. هذا المطعم مشهور بإعداد أطعمة نباتية.

قلت بسرعة :

- لا يهم .. أنا لا أريد أن آكل .. أريد أن أعرفك .. من أنت؟

قال :

- كان يجب أن تسألنى أولا هذا السؤال .. لأننى تصورت أنك تعرفنى .. ومع هذا أخبرك حتى تهدأ وتأكل.

وراح يشرح لى عمله فى مؤسسة فرنسية تعمل فى استيراد نبات (العتر) من مصر، أطال الحديث عن نبات العتر الذى

يزرعـونه فـى بعض الأراضـى المصـرية ثم يصـدرونه إلـى فـرنسـا بأثمـان مـعقولة جدًا، وهنـا يتم تصنيعـه على شكل عطور فـرنسـية غالية الثمن لها شهرة عالمية، ثم أخذ يشرح لى نظريته فى العطور التى تتشابه ولا فرق بينها إلا أشكال الزجاجات والأوانى المستعملة التـى تقـدم للـزبائن بـأشكال غـايـة فـى الجـمــال والرقــة، بل إنهم يدفـعون أجـورًا عـاليـة جدًا للفنـانين الذين يقـدمون نماذج جـديدة للزجاجات، خيل إلى أنه خبير فى صناعة وتجارة العطور، فما دخل هذا بما جاء من أجله، قال وهو يبتسم :

ـ أعـرف مـا تفكر فـيـه، إنهـا الحـيـاة يا صـديقى، يجب أن تنالهـا دفعة واحدة، لا فرق بين المدفع وزجاجة العطر، ولا بين الصحيفة والطائـرات الحـربيـة، وأيضًا لا فـرق بين غـصـن الزيتـون الشـهـيـر ونصل الخنجـر .. الفـرق يا صـديقـى فـيـمن يـعـرف وكـيف يـعـرف ويستفيد بما يعرف.

كان قد التهم الطعام كله، نظر نحوى، وقال :

ـ هذا مبلغ بسيط، حاول أن تصادق الفتيات لكى تتعلم بسرعة الفرنسية التى يستعملونها فى الشارع.

نهـض وأشــار إلـى العــامل لكـى يعطيـه الحـســاب، ثم خـرج مسـرعًا دون أن يلتفت نحوى، أسـرعت أنا أيضًا بالخـروج ودسـست المال فى جيبى، ورحت أتسكع فى الشوارع المحيطة بالمطعم، تعرفت على أول فـتـاة قـابلتنى فى الميـدان الصـغـيـر، لم أفـهم فـى البـداية لغتها.

ضحكت هى عندما رأت ما أنا فيه من ارتباك، أشارت بيدها شارحة أجزاء جسدها بالفرنسية، راحت تكرر فى كل مرة وأنا أردد خلفها، شاهدت كل جسدها وهى تشرح وتعيد الشرح، ثم أشارت إلى إحدى المقاهى، دلفنا إلى داخل المقهى، كان هناك عدد قليل من الشباب والفتيات، عندما دخلنا، انطلقت ضحكات تهكمية وصيحات استهجان، وبعض الكلمات التى لم أفهمها، جلست هى فى أناقة وأشارت على بالجلوس، اقترب الساقى وطلبت منه مشروبًا، أخذت قائمة الطعام والمشروبات، وطلبت منى أن أعيد قراءتها كما نطقت هى، اجتزت الامتحان بسهولة، بعض هذه الأصناف كنت أعرفها سواء فى مصر أو فى موسكو، ضحكت بسرور لأننى قرأت القائمة، جاء الساقى بما طلبته، أشارت نحوه ناطقة باسمه، وعندما كررت الاسم، انصرف الساقى سعيدًا، أشارت إلى صدرها وكررت اسمها (روزالين) ثم كررت الاسم مختصرا ( روزا )، أبديت سعادتى بالاسم مختصرًا . روزا . سهل النطق، إننا أيضًا فى مصر لدينا روزا، فى مقهى ريش كانت هناك صحفية لبنانية تدعى روزا التى كانت تتباهى بأن اسمها مثل اسم مؤسسة مجلة روزا، وكنا نسخر منها؛ لأنها لا تكتب فى مجلتها إلا الأخبار القذرة، .. شربت مع روزا، جاءت معى إلى غرفتى بالفندق، ظلت طوال الليل تعلمنى كيف أنطق أسماء الأشياء، وكلمة باحبك يا روزا، ثم نامت على الفراش، ورقدت أنا على الأرض حتى منتصف النهار، وعندما صحوت حاولت إيقاظها ولكنى فشلت، فانصرفت إلى مطعم الفندق لأتناول الغداء، ثم جلست فى بهو الفندق أتظاهر

بتصفحى الجريدة، لاحظت أن اللغات تتشابه، بعض الكلمات تبدو مثل الكلمات الإنجليزية، وبعضها يقترب من الكلمات الروسية، إنها لغات من أم واحدة وإن اختلفت فى قليل من حروفها وطريقة النطق بها، يبدو إننى نسيت روزا، رأيتها هابطة ويبدو عليها الغضب، راحت تتكلم فى هيستريا، أمسكت ذراعها وأشرت إلى موظف الاستقبال الذى تظاهر بأنه لا يرى شيئًا، جلست وأشارت إلى بطنها و فمها، أخذتها إلى المطعم وطلبت لها الطعام، وما أن أكلت وشربت حتى استراحت عضلات وجهها المتشيخ، أظهرت امتنانها بالشبع، وأشارت إلى أنها ترغب فى أن ترينى باريس .. يبدو أن المنطقة التى بها الفندق الذى أقيم فيه منطقة بعيدة عن قلب باريس، رحنا نتجول فى شوارع تسبح فى الإضاءة والأناقة، أبواب المحلات مزينة كأن اليوم يوم العيد، تأملت الفاترينات.

إنها لوحات فنية رسمت بمهارة وإبداع .. شعرت بالانبهار، وإن كان انبهارى ليس شديدًا، لأننا فى شوارع القاهرة نصنع هذا إن لم يكن بهذا المستوى الفنى تبعًا للإمكانيات المادية الهائلة، لم نكد نمضى نصف الشارع حتى أصبحنا مجموعة من البنات والشبان، استرحنا فى أحد المقاهى، بدأ الجميع فى الانفلات، لم أجد روزا بجوارى كانت فى أحضان شاب مفتول العضلات، بعد قليل عرفتنى به، إنه صديقها المحبوب، أهلا يا صديق صديقتى، عرفتنى بفتاة أخرى من نفس الشلة التى تركت صديقها الحبوب لتجلس معى، أمطرتنى بالقبلات وهى تدغدغ حواسى، أبديت رغبتى فى الانصراف لألم فى رأسى، صاحت روزا فى غضب لأنها خائفة علىَّ

من التوهان فى شوارع باريس، حاولت أن تستبقينى، ولكنى تشبثت فى الانصراف، تذكرت صديقتى داليـــا فى موسكو، شعرت أننى أخونها، أصرت روزا أن تنصرف معى على الرغم من احتجاج محبوبها، أخذت سيارة أجرة، حاولت أن تتكلم معى، كنت أحاول أن أفهم ما تقول، شعرت هى باليأس كنا قد وصلنا إلى الفندق، أبدت أسفها لأننى لم أقض السهرة معهم، ودعتنى وانصرفت، أشارت إلى أنها سوف ترانى فى الغد .

عندما أصبحت وحدى فى الغرفة رحت أكرر بعض الكلمات التى سمعتها من مجموعة روزا، لم أنتبه إلا والنهار الباريسى شق ضوءه من النافذة، كان الخواء يملأ عقلى، والإحساس بالفراغ، والسؤال ماذا أصنع حتى ينتهى الأسبوع وأقابل الشاب الذى سيعطينى أوراق التحاقى بالعمل فى مصنع السيارات، حاولت الاتصال بداليـــا فى موسكو ولكن لم أستطع الوصول إليها، أيقنت أنها تركت موسكو، وربما أرسلوها إلى بلادها فى ( سيبيريا ) .. بعد الغداء جاءت روزا ومعها مجموعة من الفتيات من بينهن فتاة جزائرية تتحدث العربية قليلا، ولكنها تجعل ما تتحدث به من كلمات عربية أصعب فى الفهم من كلماتها الفرنسية، ولكنها كانت أقرب إلى نفسى من بقية الفتيات، جلست معى وراحت فى حماس تعلمنى الفرنسية مستعينة بما تسميه اللغة العربية، وتعلمت بعض العبارات والألفاظ بالإضافة إلى ما علمته لى روزا، قضيت السهرة سعيدًا بفتاتى الجزائرية ( بركـــة ) هكذا اسمها، تواعدنا على أن نلتقى فى الغد بعد أن عرفت أننى أبحث عن عمل وأننى أريد أن

أتعلم كيف أتكلم وكيف أتعامل مع الناس .. لا أدرى هل أنا أحببت (بركـــة) الفـرنسـيـة المولد الجـزائرية الأصل، أم أن هذا مـن تأثيـر الفـراغ، أدرت فى نفسى هذا السؤال وتذكرت كلمات الشاب الذى سوف أقابله لتسليمى أوراق العمل، إنه هو أيضًا شغل عقلى، لقد جعل كل شىء فى السياسة والاقتصاد والاجتماع ينبع من أصل واحد، .. هل ما أقوم به أنا يدخل ضمن ( الحب )، هل توصيل الرسائل والأسلحة والتجسس لصالح المقاومة ولصالح بلدى يعتبر حبا، حبا فى ماذا، فى الوطن، فى المال، فى السلطة، أم أن ما أقوم به مجرد عمل لا عقل له ولا عاطفة .

علمتنى (بركة) الكثير من الكلمات الفرنسية وصححت لها بعض الكلمات العربية، من خلال هذا التخاطب حكت لى قصة حياتها التى زودتنى بالمعلومات الكافية عن حياة المغتربين العرب المقيمين فى فرنسا، .. الأب يعمل فى تجارة الأحذية، جاء إلى باريس من زمن بعيد، كان شابًا يحلم بالثروة، أفلت من أسرته التى تعمل فى الزراعة فى الجبل، صادق بعض الجنود الذين أوهموه أن الحياة فى باريس جنة لا يجب أن يتركها، تمسك بالهجرة، جاء إلى باريس لا يملك إلا شبابه، وحاول أن يعيش، لم تكن جنة كما حدثوه عنها، وحاول أن يعمل بكل طاقته حتى أصبح يملك مصنعًا صغيرًا لصناعة أحذية لها شهرة خاصة، وتزوج و أنجب خمسة أطفال منهم بركـــة، وتحدثت بركة عن ظروف حياتها الصعبة فهى تعيش ثنائية متعبة، فهى فى المنزل جزائرية مسلمة، وهى فى المعهد أو الشارع فرنسية، فهى مولودة فى باريس، وهى فرنسية بالولادة ومع

هذا فإنهم يتعاملون معها على أنها مجرد مهاجرة ليس لها حقوق المواطنة الكاملة وهذا يزعجها بشكل حاد .

سألتها عن العمل، قالت إنها تعمل بشكل غير منتظم، أحيانًا ترقص فى الملاهى لأنهم يعطونها أجرًا مجزيًا، وأحيانًا تعمل فى مصانع تحتاج إلى أيدى عاملة، و أحيانًا لا تعمل وتكتفى بالجلوس مع الشلة حيث تلهو وينفد ما معها من مال فتعود للبحث عن عمل، ترغب فى الزواج ولكن دينها يحتم الزواج بمسلم، سألتنى فى لهفة:

ـ هل أنت متزوج؟

أجبت صادقا أننى غير مرتبط بزواج، وإن كنت وقعت فى الحب عدة مرات، ضحكت فى سعادة :

ـ لماذا لا تجرب الزواج؟

قلت بجدية وأنا أنظر إلى عينيها:

ـ الزواج ليس تجربة .. إنه حياة كاملة.

قالت وهى تبادلنى النظر :

ـ أود الزواج منك.

شعرت أننى أقع فى أول طريق الصعاب، قلت بسرعة:

ـ ولكنى لا أرغب الآن .. أقصد فى الوقت الحاضر.

كنت أود إنهاء حوارنا عند هذا الحد، ولكنها قالت فى حسم :

ـ سأتزوجك.

وقفت غاضبًا، ولكنها لم تغضب وأمسكت بذراعى وهى تقول:

- سوف نذهب إلى مكان آخر.

أشارت إلى روزا والأخريات بعلامة الانصراف، ومضت معى، كنت أفكر فى طريقة للخلاص منها، قلت :

- لدى موعد مهم.

أطبقت على ذراعى بيديها الاثنتين وهى تقول :

- سأذهب معك.

قلت فى استغاثة :

- دعينى .. أنا أبحث عن عمل وإذا لم أجده سأضطر للعودة إلى بلدى لم يبق معى نقود.

قالت فى حماس :

- سأدبر لك عملاً فى الغد.

قلت فى سخرية:

- وهل أرقص فى ملهى مثلك؟

قالت بنفس الحماس :

أحيانًا أعمل فى مصنع للسيارات خارج باريس .. واستمر فى العمل فى وردية واحدة أكثر من عشرين ساعة.

أخذت تشرح لى عملها فى مصنع السيارات، إن السيارات الجديدة تمضى على حامل متحرك أمام عشرات من العمال، كل

عامل عليه أن (يربط مسمارًا) أو يضع قطعة صغيرة فى مكان محدد كل عامل عليه فقط هذا الجزء من السيارة وعليه أن يتم ما يفعله فى وقت محدد قليل لأن الحامل يتحرك لكى يصل إلى عامل آخر عليه أن يقوم بعمل فى جزء آخر، وهكذا إنه دولاب يتحرك ولا يهدأ أو يتوقف حتى تصل السيارة إلى غرفة المراقبة الإلكترونية ليتم فحصها والتأكد من سلامتها لتدخل فى منطقة عمل جديدة .. وعلى المصنع أن ينتج سيارة كاملة كل خمس دقائق.

بانت الدهشة على وجهى لأنها صاحت :

- لا تفزع أنت فقط عليك أن تضع القطعة التى أنت مكلف بوضعها فى مكانها .. وهذا لا يأخذ وقتًا .. إنه عمل لطيف وتأخذ فى مقابله أجرًا معقولاً .. عليك فقط العمل يومين أو ثلاثة لتقضى بقية الأسبوع فى راحة ومرح.

هل هى مصادفة تلك التى أقابل فيها هذه الفتاة ( بركة ) التى تعمل فى مصانع للسيارات، أم أنها مدبرة من قبل الجهاز الذى جئت أعمل من خلاله، شردت مفكرا، لاحظت هى شرودى فقالت وكنا قد وصلنا إلى منطقة بها أشجار كثيفة، والمطر بدأ ينهمر، قالت بركة :

- لا تحمل هما، سأدبر لك عملاً آخر، يبدو أن العمل فى مصانع السيارات لا يعجبك .. فهل أنت تجيد عزف آلة شرقية مثل الضرب على الطبل.

قلت ضاحكًا :

ـ الضرب على الطبل!

قالت فى بساطة:

ـ يكفى أن تدق دقًا منتظمًا صغيرًا أو كبيرًا بيدك أو بعصاه .

ـ وهل هذا عمل؟

قالت فى حماس:

ـ نعم، وسوف تأخذ أجرًا كل ليلة أضعاف أجر مصنع السيارات، عليك فقط ارتداء الجلباب العربى، وطاقية مزركشة على رأسك وتمسك الطبل وتدق عليه كل ليلة لمدة ساعة أو ساعتين خلف الراقصات اللاتى يرتدين ملابس الرقص الشرقى.

قلت مغتاظًا :

ـ هل هذا هو العمل الذى تريدين أن أقوم به؟

ستحصل على أجر كبير .. إنهن يعشقن الرقص الشرقى، وبعض الفتيات يتعلمن هذا الرقص من خلال رحلات فنية إلى مصر .. بل هنا جمعيات للرقص الشرقى، ولديهن هوس بهذا اللون من الرقص .. وبصراحة إنهن لا يجيدونه ويؤدونه بطريقة تثير الضحك .

قلت فى سخرية :

ـ وأنت تجيدين الرقص الشرقى .. أنت من أصل شرقى، ويبدو أن الرقص الشرقى مع بنات الشرق بالفطرة .

قالت وهى تقدم لى قطعة حلوى :

ـ لا أجيده بالشكل الذى أراه فى الأفلام المصرية، ولكنى أجتهد لكى أحصل على أجر يعفينى من العمل فى مصانع السيارات، فهو عمل ممل وكئيب، ولا تطيقه أكثر من يومين .. لأن عقلك يتوقف ويدك فقط هى التى تتحرك.

قلت وأنا أستعد للانصراف:

ـ سأراك قريبًا يا بركة.

قالت وقد عادت تتشبث بذراعى:

ـ سأذهب معك وسأظل معك .. وسوف نقتسم ما معى من نقود حتى تجد عملاً .

عندما قابلت ( حسن ) وقد سألته عن اسمه عندما رأيته جالسًا فى انتظارى بالمطعم ومعه حقيبة سوداء وضعها بجواره، قال:

ـ أعرف أنك قضيت أسبوعًا مملاً .

هززت كتفى وجلست وأنا أتذكر روزا، وبركة اللتين لم تتركا لى وقتا للملل، كل منهما تشبثت بى، وخاصة بركة التى اعتبرتنى ملكًا خاصًا لها، قال حسن :

ـ الآن جاء دور الجد .. هذه هى الأوراق، ستسافر فى الغد، وأرجو لك التوفيق.

كان عامل المطعم قد جاء بالطعام ووضع أمامى طبقًا من الأسماك، قال حسن :

ـ هل يعجبك السمك؟

كنت أفكر بالطريقة التى أتخلص بها من بركة، كيف أحتال عليها حتى يمكننى السفر دون أن تعرف.

احتفظت بالأوراق على صدرى، جاءت بركة فى المساء معلنة عزمها على ضمى لفرقة الموسيقى الشرقية التابعة لجماعة الجسد الجميل، وهى جماعة من السيدات المثقفات المؤمنات بلغة الجسد، وأن الجسد يستطيع أن يعبر عما بداخل الإنسان أفضل من الكلام، راحت تتحدث عن الجماعة بحماس شديد، وقالت إن رئيسة الجماعة زارت مصر أكثر من مرة، وتعلمت الرقص على أيدى شهيرات هذا الفن فى شارع محمد على، وإننى أحتاج فقط إلى الشجاعة وسرعة الاستجابة للموسيقى خاصة الرتم، أشرت إليها أن تجلس خاصة أنها تحمل طعامًا مغربيًا كنت أشتاق إليه، أقامت بركة بسرعة المائدة، أكلنا، قلت بعد الشبع :

ـ سأسافر فى الغد .

صاحت فى رعب :

ـ وتعود إلى بلدك.

قلت فور سماعى سؤالها لأننى لم أكن قد أعددت ما سأقوله :

ـ بدلا من دق الطبل خلف الراقصات.

اندفعت نحوى فى عاصفة هوجاء وراحت تعدنى بالحب والعمل والبيت والأسرة، وإنها لن تدعنى أعمل مع الراقصات، بل سنعمل

معا فى أعمال أفضل، وأن معها من المال ما يكفى لكى نعيش حتى تجد لى عملاً مناسبًا، ، لم تدعنى إلا بعد أن جاءت روزا التى أبعدتها بقسوة، وتضاربت الاثنتان، وازداد العراك ووجدت أن هذه فرصتى لأتخلص منهما، فرحت أصرخ فى غضب معلنًا احتجاجى على هذه الوحشية فى حجرتى، وأصررت على طردهما، قاذفا بركة بطعامها المغربى، وقاذفا روزا بزجاجة الشراب وكيس التفاح والتى أحضرتها معها، جاء عامل الفندق الذى قرر طردهما من الفندق كله وطردى أنا أيضًا إذا لم يخرجا حالا من الفندق، أغلقت الباب، عدت وحدى، حزمت حقائبى، ، خفت أن تتسلل إحداهما وتأتى ليلا، خاصة أن بركة لن تتركنى بسهولة، ، هبطت إلى الصالة، دفعت بقية حساب الفندق وأعلنته بمغادرتى، ، حملت حقيبتى، ، واتجهت نحو المدينة الجديدة التى سأعمل بها، كنت أتمنى أن أقضى الليل بحجرتى حتى أتهيأ للعمل الجديد، ، ولكن قضيت الليل كله وأنا قابع فى سيارة أجرة أصيب سائقها بداء الثرثرة، ، فلم يتركنى أنام حتى وصلت إلى مدينة (ليون)، حيث يجب أن أستقل سيارة إلى منطقة المصانع المسماة (الكهف) أو هكذا ترجمت اسمها.

# الفصل الثامن

بعد عدة أشهر فى صالة تجميع محركات السيارات اكتسبت مهارة شهد لها رئيس العمل، وإن كنت فقدت الكثير من وزنى، لم يكن عملى مجهدًا، كل ما أقوم به الإمساك ( بالريموت ) وتحريك الريبوت لالتقاط القطعة المطلوب تركيبها فى جسم المحرك، ومن المفروض أن أحرك أصابعى على ( الريموت ) الذى يقوم بالعمل، بل إننى أحيانا أكاد أطير من على الأرض موازيًا حركة الريبوت الذى يتحرك بسرعة فائقة من جسم المحرك إلى منطقة تجميع قطع الغيار، ولكن بعد كل تلك الأشهر لم أصل بعد إلى الهدف من وجودى ولم أجد محركات غير عادية، إنها نفس المحركات التى تكاد تكون محركات دراجات بخارية، وفى الحقيقة اكتسبت صداقة معظم من عمل معى، بل إننى أحيانًا كنت أخرج معهم فى نزهات وجولات مرحة، وكان رئيس العمل يصطحبنى معه إلى داخل مكاتب التصميمات وهو يأخذها من المهندس المختص، وفى إحدى الجولات داخل المكاتب تعرفت على (ميرا)، وهى المسئولة عن صيانة الحاسبات الآلية، بسرعة دعوتها على العشاء، وبعد العشاء

أخذتها فى نزهة جبلية، حاولت فيها أن أعرف منها كل ما تعرفه عن المصنع، ومع هذا لم أجد لديها ما يزيد على ما أعرفه، تواعدنا، وكنت أحرص على ملاقاتها، فقد ضقت ذرعًا بالعمل بقسم المحركات، بل فى المصنع كله، قالت لى ذات مرة :

ـ هل تود الانتقال إلى قسم آخر؟

قلت بسرعة : ـ لا أريد أن أترك قسم تجميع المحركات لأننى أجدت العمل به.

ـ ممكن نقلك إلى قسم يعمل أيضًا فى تجميع المحركات

أسرعت بالسؤال :

ـ وهل هناك قسم آخر للمحركات تابع للمصنع؟

قالت وهى ترنو نحوى فى حب :

ـ إنهم هناك يجربون أنواعًا جديدة من المحركات يطورون بها الإنتاج.

قلت بحماس :

ـ أتمنى .. ولكن ..

قالت مقاطعة وهى تقبلنى بحرارة :

ـ لا توجد لكن .. فقط يجب أن تسمع الكلام.

أبعدتها قليلا برفق وأخذت أسأل عن قسم تجميع المحركات الجديدة، أحاول أن أعرف وإن كنت أتظاهر بعدم الاهتمام الذى

يمكن أن يكشف أهدافى انتهت المقابلة على أن تبلغنى رأى المدير فى نقلى.

عدت إلى العمل وأنا أفكر فى الاتصال بالوزير، ربما يكون لديهم معلومات جديدة فقد مضى وقت طويل منذ أن كلفونى بهذا العمل، وكانت رغبتى أن أقوم بمهمتى ثم أعود إلى بلدى، وأحاول أن أعمل عملاً بعيدًا عن هذا الجو الذى أركبنى الهم والحزن والخوف، .. لم أستطع الاتصال وكأن الوزير ترك منصبه ولا أحد يذكرنى، بل حاولت الاتصال بالرجل الذى قابلنى فى باريس وأرسلنى إلى هذا المصنع .

الإحساس بأننى صرت معلقًا فى الفراغ، لا أحد يعرف أين أنا وماذا أفعل، وفى نفس الوقت العمل شاق للغاية، جاءت (ميرا) لتخبرنى إنهم وافقوا على نقلى إلى قسم المحركات الجديدة، وإن كان العمل سوف يتغير لأنهم ألحقونى بالمخازن الخاصة بقطع الغيار، لم أملك إلا أن أبدى إعجابى بميرا بسرعة استجابتها، وألمحت إلى أن العمل فى المخازن سهل ميسور ولا يحتاج إلى المجهود الكبير الذى أبذله فى عنبر المحركات، بالليل تعشينا احتفالاً بانتقالى، وبدأت (ميرا) تشعر إنها امتلكتنى وأنها بدأت تضع لى خطط المستقبل، تظاهرت بالانصياع لأوامرها، الظاهر أننى أصبحت أجيد هذا التظاهر، أين أنا حقيقة، لا أدرى، منذ سفرى إلى موسكو لم أمانع، فى الحقيقة لم يكن لى رأى آخر، ولكنى شعرت أننى مجبر على السفر، أعادونى إلى الوطن وأنا

لا أدرى لماذا، ثم تكرر إرسالى وأنا أفعل دون اعتراض، ودون مناقشة، لم أفكر من قبل: هل أنا مقتنع بدورى هذا أم غير مقتنع، إننى أنصاع للأوامر: أين أنا فى هذا كله... لا أدرى.

جاءت ( ميرا ) فى اليوم التالى وأخبرتنى أنها وجدت لنا مسكنًا جديدًا به حديقة صغيرة، وأنها رأت أن أنتقل إليه لنعيش معا، كانت تقول هذا ببساطة شديدة وهى مقتنعة بأننى سوف أطيع وأنفذ الأوامر، كانت حالتى النفسية سيئة للغاية فأخذت أهذى بكلام عنيف رافضًا فكرة الانتقال، رافضًا بحدة ارتباطى بها، معلنا رغبتى فى ترك العمل كلية، بل ترك منطقة ليون بأكملها، كانت فى حالة ذهول، لم تحاول مقاطعتى، وأنا وجدتها فرصة لكى أتحرر مما أحمله من هم، وضعت حقيبتها الصغيرة على كتفها، مضت منصرفة وهى تقول:

- سوف تهدأ بعد يوم أو يومين.

قلت صائحًا:

- لن أهدأ مطلقًا.

استدارت وقالت:

- أنت تعرف أين تجدنى.. وسوف أنتظرك.

أليس هذا غريبًا أن تتعلق بك الفتيات وأن تحاول الفرار منهن، هل هن يتعلقن بى لأننى أحاول التخلص منهن، فأبدوا مرغوبًا، أم أن بى ما يجذب النساء، إن عقلى يدور فى كيفية أداء مهمتى،

أشعر أننى فى حالة امتحان أن أؤدى مهمتى وأنجح فى ذلك، إنها مسألة تبدو لى حتمية، وكل مهمة أتصور أنها الأخيرة، سوف أقوم بها وأعود إلى الحياة الطبيعية لشاب مثلى، أعمل فى عمل محدد واضح ومشروع، وأتزوج وأنجب، وأذهب إلى الشواطئ أيام الإجازات، وأحتسى القهوة العربية فى شرفات بيتى، وأتخيل نفسى أحيانًا أجلس مع شلة من الأصدقاء فى النادى ونتحادث حول البورصة والوظائف وأخبار القضايا الاجتماعية العامة. .. أحيانًا أتخيل مشاجرة مع زوجتى حول طهو البط، بل إننى أحيانًا أعيش يومًا كاملاً وأنا فى مشادة حامية مع ابنى الأكبر، هل هو فعلاً مقتنع بالعمل فى مزرعة، أم من الأفضل إنشاء شركة لتصنيع السجاجيد، ويتدخل ابنى الأصغر باقتراح أن أترك لابنى الأكبر العمل فيما يريد ويحب .. وأصحو مصدعًا قلقًا، و مرارة فى فمى، وخواء فى معدتى، أحاول أن أعود إلى الواقع الذى أعيشه، أتذكر مهمتى، انتبه إلى ما فى يدى، .. كان العمل فى المخازن سهلاً وبسيطًا كما قالت ( ميرا )، يبدو بجانب العمل فى عنبر المحركات لا شىء، ولكن هذا العمل لن يفيدنى، فى اليوم الرابع، قال زميلى الذى كان يتباهى بحب البنات له، ودائمًا يقص غرامياته التى لا تنتهى قال زميلى هذا :

- أنت تبدو نائمًا دائمًا .. وهذا الأمر سوف يجر عليك المشاكل .

قلت بسرعة :

- أنا متيقظ دومًا يا فيليب.

قال ضاحكًا فى سخرية :

ـ والدليل أنك وضعت أجزاء المحرك المعدل مع أجزاء المحرك القديم .

دق فى رأسى ناقوس الاستشعار، أيقنت أننى أمام حل اللغز الذى جئت من أجله، قلت :

ـ بل إننى منتبه يا رفيقى.

تعالت سخريته وهو يقول:

ـ وهل هذه الأجزاء توضع هنا .. ألا ترى العلامات والأرقام؟!

قلت وأنا أتفحص قطع الغيار والأجزاء التى أشار إليها، تذكرت الرسومات التى كانت مع الشاب الذى قابلنى فى باريس وأرسلنى إلى هنا، أخذ منى القطع فى عصبية وهو يقول :

ـ لو فعلتها ثانية سوف أخبر رئيسك .

لم أعلق، وبدأ عقلى فى رصد تلك القطع، وعندما أصبحت فى مسكنى رحت أرسم تلك القطع التى رأيتها وأقارن بينها وبين الرسومات التى سبق أن رأيتها، كان هناك اختلاف بسيط، أحرقت الأوراق، ونمت تلك الليلة نومًا عميقًا، فقد أصبحت على وشك الوصول إلى هدفى، لم يبق إلا التأكد من رسم المحرك كاملا، هذا بالطبع سوف يستغرق وقتًا ..

جاءت ( ميرا ) فى الصباح ومعها سلة بها إفطار دسم، قدمتها لى وهى تقول :

- علمت أنك فى حاجة إلى الانتباه فى عملك.

قالت هذا ومضت دون أن تسمع ردًا، وكان الإفطار دسمًا وشهيًا .. فى المساء كان معى رفيقى فى العمل ( فيليبو ) أو فيليب، دعوته على العشاء كما دعوت ( ميرا ) لكى أتصالح معها، جاء فيليب أو فيليبو ومعه ( سيزا ) زميلته، جلسنا فى مقهى جميل كان يطل على وادى كثير الأشجار، طلبنا العشاء، اندهشوا جميعًا عندما أخبرتهم أن العشاء على نفقتى وإننى بالفعل دفعت ثمنه وثمن المشروبات التى يمكن أن يشربونها إلى كميات كبيرة، راح فيليبو يأكل ويشرب بشراهة، حذرته ( سيزا ) ولكنه لم يهتم وراح يشرب ويغنى ويرقص فى مرح جعلنا جميعا نندمج فى هذا المرح .. تذكرت ليالى الموسيقى والغناء فى دمشق وحلب، يا ليل فى حوارى عابدين، موال الصبر فى ليالى القناة، أهلا بالمعارك، نحيا ونموت على حبك يا بلدى، عزف منفرد على الناى فى مقهى السروجى فى شبرا، آه يا بلدى كم أحبك .. ( ميرا ) ترقص مع فيليبو فى رقصة سريعة، عازف الناى اقترب منا وراح يسمعنا نشيد الانتصار لبيتهوفن، جذبتنى ( ميرا ) لكى نرقص، فيليبو لم يعد قادرًا على الرقص وراح يهزنى، لعن كل الناس، وخاصة ( أم سيزا ) لأنها تحرمه من زواجها، لعن ما تؤمن به ( سراجيل أم سيزا )، وأنه لم يعد يعرف دينه، هذيان فليبو يبدو أحيانًا لون من ألوان الفلسفة، إنه رجل عالمى، ينتمى للعالم كله، لا وطن له، لا دين، إنه يؤمن بالإنسان، الإنسان هو المركز الذى يدور حول كل الأوطان والمعتقدات، لا يجب أن ينتمى الإنسان لمكان محدد ولا وطن محدد، إنه حر أن يسكن

الجبال أو التلال أو يسكن فوق البحر أو تحت البحر، لعن فيليبو الكسل لأن الكسل خلق الصراعات والحروب، لأن الكسل جعل الإنسان يسكن فى المكان ولا يغادره، ويصرخ إنه الوطن فإذا أراد إنسان آخر أن يقترب منه يقاتله .. إنه الكسل، أشار فيليبو نحوى وقال :

ـ وأنت زعيم الكسل، أنت من أقدم الكسالى .

ابتسمت فى محاولة لعدم العراك معه وهو فى هذه الحالة، قال فى جدية شديدة :

أنت عربى .. طبعكم الكسل، حفرتم فى الأرض ووجدتم البترول، ولا تريدون أن يشارككم الآخرون .. إنكم مجرد حفارون كسالى .

زم قبضة يده وهو يقول :

ـ لماذا تكرهون اليهود؟

هذا هو الخط الأحمر، ماذا أفعل هل أدخل معه فى نقاش أم أصمت، تدخلت ( ميرا ) بسرعة وهى تقول :

ـ كفى يا فيليب، نحن هنا زملاء عمل فلا داعى للنقاش على هذه الصورة .

أمسكت سيزا بيد فيليب وهى تسكته بقبلة :

ـ هيا يا ولد .. حان الآن موعد النوم .

انصـرفنا جـمـيـعًا، ، ولكنى عـرفت من هو فـيليب ولماذا كـان متحاملا ضدى، فى الصباح جاء مبكرًا، وقدم اعتذاره عما قاله بالأمس .

فى موعد الانصراف جاءنى فيليب، وقال فى حياء إنه يريد قرضًا يصلح به شأنه ويقدم بعض الهدايا لأم سيزا، لم أوافق على القرض بسرعة، وأخبرته أنه يجب أن أفكر، ربما فى اليوم التالى أعطيه الرد .

حاولت أن أماطل فيليب فى طلبه للقرض حتى أحسست فعلاً أنه يحتاج إليه، وأننى ممكن أن أسيطر عليه من خلال إقراضه، وبالفعل أعطيته ما أراد، وتحولت معاملته إلى معاملة رقيقة ودودة، فى أثناء ذلك استطعت الإلمام بتفاصيل المحرك الجديد، بل استطعت أن أحصل على رسم كامل للمحرك من خلال الفترات التى كنت أقضيها منفردًا بالمخزن بحجة إرسال فيليب للحصول على توقيع المهندس على صرف بعض قطع الغيار، اكتملت رسومات المحرك، وبدأت إرسالها من خلال اتصالى بالشاب الذى قابلنى فى باريس، خاصة أننى وجدته باتصالى بالرقم الذى أعطاه لى، ووعدنى أن يحضر بنفسه لاستلام الرسومات مفصلة واضحة، لم يحدد الموعد، شعرت ببعض الراحة لأننى اعتبرت أن مهمتى قد قاربت على الانتهاء، بدأت أحلام العودة إلى الوطن تراودنى من جديد، وأول ما حلمت به الزوجة والأولاد والمنزل المستقر، فى الزمن الماضى كنت أتصور زوجتى على نحو محدد من حيث الطول

والوزن والشعر ولون العينين، وبعد أن سافرت لعدة بلاد مختلفة، وتشابكت عواطفى، وتحاور عقلى مع عقول أخرى، ومال القلب عدة مرات، وفى كل مرة أعتقد أن الحب جاء، وأن هذه هى حبى الذى اخترته، يذهب الحب وتذهب صاحبته لأعود ألتمس النجاة فى حلمى، أحيانًا أجده كما هو وأحيانًا لا أجده، ضاعت الصورة وتغير الحلم، واليوم بعد أن أحسست أن موعد عودتى إلى الوطن أوشك أن يحين

أتذكر حلمى .. وأجلس طوال ليلى أحاول تفسير الحلم وأتبين أن الحلم تاه منى، لم أعد أتخيل صورة للزوجة، فى أيام طفولتى كنت أحلم بإنشاء حديقة بها الكثير من أشجار العنب والبلح والتفاح، فى وسطها بيت أبيض صغير، كان حلم الحديقة يبدو لى حلمًا قابلاً للتنفيذ، أحاول أن أجتهد حتى أحقق حلمى، واليوم هل أنا فعلاً قادر على تحقيق حلمى، إن الحلم ذاته لم يعد له بريقه، بل لم أعد أحب ثمار التفاح فلماذا أزرع أشجار التفاح، والعنب أيضًا لم أعد أطيقه دومًا، أحيانًا أقبل عليه، وأحيانًا أخرى لا أحبه، .. جاءنى فيليب وكنت قد أعطيته ما يريد من مال على سبيل القرض ولم يسدده بعد، واليوم جاء يطلب قرضًا جديدًا، جاء ومعه (سيزا) وهى ترتدى رداء قصيرًا أعلن عن جسدها جميعه دون حياء، ومعه شراب، اقترحت عليهما أن نذهب إلى أحد المتنزهات حيث يمكن عمل شواء، وأيضا اقترحت أن نخبر ( ميرا ) لتنضم إلينا، ولكنه اعترض على دعوة ميرا لأنها تشاجرت معه فى المرة السابقة وأصر على أن نقضى السهرة فى مسكنى، حاولت الاعتراض، ولكنى

تراجعت فى محاولة لمعرفة هدفى الخفى، فى البداية أعلن شكره لى لأننى ساعدته وأن أم سيزا سوف تقبل بزواجه بعد تسديد ديونها وأيضًا لو أمكن أن يقترض مبلغًا آخر لشراء هدية العرس، وافقت وتظاهرت أننى أوافق على مضض، بدأ فيليب الشراب، وحاولت سيزا مجاراته وتظاهرت أنا بالانكباب على الشراب ذاكرًا أن (ميرا) حبيبة القلب أوحشتنى، حاولت سيزا الاهتمام بى وبشرابى، وخاصة بعد أن بدأ فيليب يفقد رشده، وبدأ يهذى كالعادة ويلعن كل الناس وكل شىء، ثم بدأ يعلن غضبه من المهاجرين الذين جاءوا إلى فرنسا لكى يحولونها إلى بلاد فقيرة، (المهاجرون أخذوا البنات والبيوت والعمل .. ملعونون هم هؤلاء المهاجرون، يجب أن نهتف جميعا باللعنة على المهاجرين السود والبيض، العرب والهنود والأفارقة وكل الأجناس التى وفدت إلى فرنسا)، ثم أعلن كراهيته الشديدة للعرب خاصة لأنهم يعادون دينه وشعبه ودولته، وأشار فيليب نحوى فى غيظ وهو يردد:

- أنت بالذات رجل كريه، خبيث، تمقتنى بشدة.

قالت سيزا فى شراسة :

- اسكت يا ولد .. أنت قذر، أنت بالذات قذر وأهلك أيضًا قذرون، بل أشد قذارة ودناءة من كل الناس .

لطمها بقسوة وهو يلعنها كالمعتاد، وأضاف :

- إنه لن يجعلها زوجته لأنها لا تستحق هذا الشرف، ولا تستحق أن تنتمى لأسرته الكريمة.

راحت هى أيضًا تلطمه، حاولت التدخل لكى يعودا إلى الهدوء، لم يكن هناك داع لهذا الشجار، افلت فيليب مغادرًا مسكنى وهو غاضب يزمجر، جلست (سيزا) بعد أن انصرف وشربت ودعتنى للشراب، ولما اعتذرت عما حدث، قالت فى برود :

- إنه لا يستحق ولا يجب أن تعطيه فرنكًا واحدًا

اقتربت منى، تظاهرت أننى سكران، ازداد التصاقها بى وهى تقول :

- إنه جاسوس.

تظاهرت بأننى لم اسمع، أعادت الجملة، ثم راحت تتحدث عن عداوتها الشديدة لليهود، وإنها تحاول الاتصال بالمنظمات المناهضة للاستعمار لكى تعمل معهم، وسألتنى هل هناك من يدلها على كيفية الاتصال بهم، قلت كلامًا غير مفهوم، وأعلنت أننى جئت للعمل لا للحديث فى السياسة أو المسائل التى تمس الحكومة، ضحكت بشدة وهى تكاد تخلع رداءها القصير، ثم قالت فى ميوعة شديدة :

- ولماذا تقوم برسم المحرك الجديد؟

قلت بسرعة :

- أليس محركًا عاديًا لسيارة رخيصة .. منشور فى مجلات السيارات.

ازدادت ضحكتها ضراوة، وقالت دون مواربة:

ـ أنت تعلم أنه محرك طائرة حديثة، لقد لمحك ( فيليبو ) وأنت تقوم بنسخ رسومات المحرك.

قلت فى شراسة:

ـ وماذا تريدين أنت وفيليبو؟

قالت دون مواربة :

ـ مائة ألف فرنك لكل منا ولن نخبر أحدًا.

قلت بسرعة :

ـ وإذا لم أدفع.

قالت وهى تخلع الرداء كله وتبدو عارية، وهى تسكب زجاجة الشراب على جسدها..

ـ كما ترى أيها الغبى .. أنا لا أملك شيئًا وأنت تملك المال، فإذا أعطيتنى ما أطلب سو..

لم تكمل واندفعت تقبلنى بحرارة، ملتصقة بجسدى، ويدها تعبث برأسى والأخرى تتحسس جسدى، دفعتها بعيدًا وقلت :

ـ ليس معى ما تطلبين، وليس عندى أنا الآخر ما أخشى عليه.

توقفت وهى تنظر فى وجهى بدلال :

ـ سوف أخبر جهاز الأمن بالمصنع، وسوف يحملونك إلى مكان غير معلوم حيث يتم ..

أشارت إلى عنقها بمعنى القتل أو الشنق، قلت فى برود:

- قبل أن يفعلوا هذا بى سأكون قد أبلغت رفاقى الذين يودون قتلك أنت وأمك وفيليبو العزيز.

اختلجت عضلات وجهها، ولكنها قاومت الخوف، وقالت :

- ليس الأمر بهذه السهولة يا عربى .. لدينا جماعات تتسلى بقتل أمثالك.

تظاهرت بالتراجع وأنا أقول :

- ميرا ستدافع عنى وتخبر رؤساء المصنع بأنكم تبيعون الرسومات لمن يدفع والدليل ما أخذه فيليبو العزيز ..

جلست هى بعيدًا وقالت :

- ولماذا لا تدفع ونحن لن نخبر أحدًا .. ولا حتى ميرا.

قلت فى هدوء:

- أنا أود مساعدتك يا سيزا، فأنا أميل إليك كثيرًا ومن الممكن أن أدفع لك ما تريدين، ولكنى لا أملك الآن، ثم إننى بالفعل لا أنوى نقل الرسومات لأحد.

عادت تضحك وهى تقول :

- دعنا من أمر المال الآن، سوف نتحدث عنه فيما بعد، أما الآن فدعنى أرى فحولتك التى يتحدثون عنها ..

اندفعت نحوى، تحاشيتها، تظاهرت بالمرض فى معدتى، طلبت منها أن تستدعى الطبيب، كنت أتلوى أو أتظاهر بشدة الآلام،

أسرعت هى باستدعاء مشرفة السكن لكى تحضر طبيبًا، .. انتظرت لحظات حتى جاءت السيدة المشرفة ثم أسرعت بالانصراف .. وجاء الطبيب الذى ناولنى حبوبًا مهدئة ونصحنى بالنوم وهو يردد للسيدة المشرفة:

ـ هؤلاء الأجانب لا يكفون عن الشراب، سيموتون على هذا النحو.

مضى الطبيب، أرقدتنى المشرفة وهى تعلق :

ـ لم تكن على هذا النحو من قبل، لماذا تصادق هؤلاء السفلة أصدقاء إبليس.

رسمت علامة الصليب، تظاهرت بالنوم، انصرفت السيدة بعد أن أطفأت النور، ساد الظلام وبدأت المخاوف والهواجس تلعب برأسى، تمنيت أن أنهى هذه المهمة وأعود إلى بلدى، ورأيت النيل والفيضان، ورأيت الشوارع والحدائق .. وشربت حتى ارتويت من ماء بلدى ..

فى الصباح جاء فيليب وهو ينظر إلى فى تخابث، وعندما حان موعد الراحة للغداء، اقترب منى وقال :

ـ هل أعجبتك سيزا؟

قلت بسرعة:

ـ ميرا أحلى بكثير.

امتدت يده وأخذ علبة البيرة الخاصة بى وهو يقول :

ـ متى تعطينى القرض؟

قلت وأنا أستعيد علبة البيرة فى عنف:

ـ وهل تطلب أنت أيضًا مثل ما طلبته سيزا.

قال ببرود :

ـ هل ستعطيها ما طلبته؟

قلت وأنا أنظر إلى عينيه :

ـ ما رأيك؟

قال وهو يحاول أن يدارى وجهه :

ـ علاقتى بسيزا انتهت، ولهذا أريد أن تدفع لى مباشرة ثلاثة مائة ألف فرنك.

أمسكت رأسه بشدة :

ـ وإذا لم أعطك فرنكًا واحدًا .. ماذا ستفعل يا فيليبو؟

قال وهو يمضغ طعامه فى برود :

ـ سوف تدفع بالتأكيد.

لم أرد عليه، فى المساء وجدت الشاب الذى قابلنى فى باريس يدق باب مسكنى، ما فرحت بشىء إلا فرحتى بوجود هذا الشاب فى هذا الوقت، أدخلته مرحبًا، قال :

ـ لم يعد لك مكان هنا .. ها هى تذاكر السفر للعودة، وهذا بعض المال يعينك حتى تصل إلى الوطن:

دفعت إليه بالرسومات الكاملة، وأيضًا بعض ما كنت أخطه فى البداية للمحرك، أخذها، ولكنه ترك القصاصات غير المكتملة، خرج مسرعًا كما جاء، شعرت بالراحة، آن أوان العودة إلى الوطن، تمددت على فراشى أتنفس بحرية بعد نجاحى فى مهمتى، دق الباب، حسبته الشاب جاء ليخبرنى بشىء نسيته، ولكن ما أن فتحت الباب حتى رأيت (ميرا) تدخل ومعها (بركة) التى اندفعت نحوى فى شوق واضح، وهى تردد :

- أخيرًا يا زوجى العزيز .. أوحشتنى.

نظرت نحو (ميرا) التى قالت:

- جاءت تبحث عنك وعندما عرفت أنها زوجتك جئت بها إليك.

ذهبت ميرا إلى المطبخ بحجة إعداد الطعام، قلت لبركة :

- كيف عرفت بمكانى؟

ضحكت فى سعادة وهى تقول:

- هل تتصور أننى كنت سأتركك تهرب منى؟

أخذت تحكى كيف فعلت كل شىء من أجل الحصول على مكانى، بذلت الجهد والمال من أجل أن تصل، لم أحاول أن أناقشها فى مزيد من المعلومات لأننى أنوى السفر والعودة، فلا يهم كيف توصلت إلى مكانى، وما الذى قالته لميرا، لم تعد هذه الأمور تهمنى، عادت ميرا ومعها الطعام، حاولت أن تثبت أنها صاحبة المنزل وأنها الأحق بساكن هذا المنزل.

تراجعت بركة عن محاولاتها لإثبات علاقتها بى، شعرت أن كلاً منهما يحاول الاستحواذ على قلبى، وهما لا يعلمان أن القلب لم يعد كما كان لأنه لم يعد يعرف الحب، وإن كل شىء عنده سواء ...
قالت بركة:

- أحضرت لك عقدًا للعمل.

صحت فى سخرية:

- طبال فى فرقة الرقص.

لم تهتم بركة بسخريتى أخرجت أوراق العقد لترينى إياه، يحتاج فقط لتوقيعى، إنه عمل جيد فى مؤسسة ثقافية تعمل على ترجمة الأدب الروسى إلى الفرنسية، ويحتاجون إلى موظف يمكنه كتابة البيانات الخاصة بكل كتاب بالروسية، وسوف أحصل على راتب أسبوعى يصل إلى راتبى الشهرى فى مصنع السيارات، أعلنت سعادتى بالعقد، أسرعت ميرا وأبلغتنى أن هناك ما يحول دون سفرى، تساءلت بركة بشراسة عن تلك الإجراءات، لكن ميرا جلست بهدوء وراحت تأكل .

لم آخذ الأمر على محمل الجد، أعرف أن ميرا لا تريدينى أن أسافر وأتركها، أما بركة التى تحملت مشاق البحث عنى فإنها أيضًا لن تتركنى فى حالى، دخل فيليب وأسرع نحوى طالبًا الانفراد بى، حاولت أن أتملص منه ولكنه أخذنى عنوة إلى ركن من الحجرة، وأرانى بعض الأوراق التى كنت أخط عليها بعض قطع المحرك الجديد وهو يقول:

- لقد وجدوا مثل هذه الأوراق بدولاب ملابسك فى المخزن.

قلت بسرعة :

- ماذا يعنى هذا؟

قال ببرود :

- لو أعطيتنى ما طلبته من نقود سأخبرهم بخبر يمنع عنك الاتهام.

سألته بسرعة:

- وبما يتهموننى يا رفيق؟

قال بوجهه البارد:

- التجسس... أنت فى نظرهم جاسوس خائن تستحق الإعدام.

أمسكت برقبته فى عنف، صرخ، جاءت البنتان ودفعانى بعيدًا، فيليب راح يسب ويلعن، وأشار نحوى قائلاً:

- لن اسكت حتى أراك ميتًا.

- اندفع إلى الخارج .. شهقت بركة ثم قالت :

- معى تذاكر السفر إلى باريس.. هيا معى لن يصيبك مكروه ما دمت معى .

قالت ميرا وهى حزينة :

- لا أملك لك شيئًا، سيأتون حالاً.

شعرت بجدية الموقف، أسرعت بإعداد حقيبتى تعاوننى بركة التى كانت تبكى مضطربة، قبلتنى (ميرا) مودعة وهى تبكى هى الأخرى، أمسكت بى بركة وهى تردد:

. لن يأخذوك منى.. لن أسمح لأحد بأخذك.. أنت مثلى وأنا مثلك.. أنا أحتاج إليك .

قلت شاردًا :

. يجب الانصراف فورًا.

لم أكمل عبارتى، جاءت مجموعة من قوات الشرطة ومعهم ثلاثة من مهندسى المصنع الذى أعمل به، التقط أحدهم الأوراق التى كان قد قذفها فيليب على الأرض، نظر قائد الشرطة نحوى :

. فى مركز الشرطة قل ما تريد... أما الآن فسوف تأتى معنا .

راح أفراد الشرطة فى جمع كل محتويات مسكنى، أشرت إلى بركة أن تنصرف ولكنها رفضت بشدة، أخبرها قائد الشرطة أنهم لا يحتاجون إليها، ولكنها أصرت أن تذهب معى حتى تعرف ما سوف يحدث لى... جمع المهندسون الأوراق، وأعطوها لقائد الشرطة، وكان أفراد الشرطة قد جمعوا كل حاجياتى... واقتادونى أمامهم.

# الفصل التاسع

بعد أسبوع أخرجونى من الحجرة الضيقة التى وضعونى بها، كان الضوء قليلاً والطعام أيضًا، ولكن هواجسى كانت كثيرة وشديدة، والحبس فى حجرة صغيرة ضيقة وفى شبه ظلام ليل نهار هو العذاب بعينه، كان قلبى يخفق بشدة والإحساس بالاقتراب من الموت، وأيضًا بالمجهول الذى أنا منساق إليه، .. أخرجونى، صدمنى الضوء الباهر للنهار، ساقونى مسافة طويلة بين صعود للسلالم وهبوطها، ثم أجلسونى على مقعد خشبى فى حجرة زجاجية، وجاء رجل طويل أشقر وجلس قبالتى، وضع رزمة الأوراق وقلمًا وقال بلغة آمرة :

- أكتب كل شىء.

نظرت إلى عينيه وقلت :

- ماذا أكتب؟

قال فى غطرسة واضحة وضيق :

ـ اكتب كل شىء تعرفه من أول اسمك إلى كيف تريد أن تموت .

قلت فى ضيق :

ـ لن أكتب شيئًا، أريد أن أعرف لماذا أنا هنا؟

وقف فى اشمئزاز وقال :

ـ اكتب يا عربى كل ما يدور فى ذهنك وسوف تعرف ساعتها لماذا أنت هنا .

دارت المحاورة على هذا النحو، أحيانًا يلين فى كلامه، وأحيانًا أخرى يكون أشد قسوة وغطرسة، لاعنا جنسى بكل الصفات السيئة، قلت :

ـ أريد محاميًا، وهذا آخر ما أقوله.

أصدر صوتًا قبيحًا، نادى على الجند الذين ساقونى إلى حجرة الحبس الضيقة، مضت ثلاثة أيام لم يصلنى طعام ولا ماء، بدأت قواى تخور، قاومت، كان اعتقادى إنهم لا يملكون دليلا أكيدًا على إدانتى، حتى لو كان ما قاله فيليب، فى اليوم الرابع سمحوا لى أن أقابل زائرتى، وكانت بركة التى كانت تبكى، ولكنها أخبرتنى أن محاميًا كبيرًا سيتولى أمرى والدفاع عنى، وتساءلت :

ـ بما يتهمونك، لقد تعبت حتى وصلت إليك، لا أحد فى دائرة الشرطة يعرف، شيئًا عنك.

قلت بسرعة:

- كيف .. أليس هؤلاء من الشرطة؟

قالت :

- لا أدرى المهم الآن أن يسمحوا للمحامى الاتصال بك .

شكرتها، أعطتنى ما جاءت به، كان زادًا ومالاً وبعض علب السجاير، عندما انصرفت بدأت التفكير فى طريقة الهرب، ما قالته بركة يدل على أن فى الأمر ما يريب، وأنهم ربما دفعونى إلى الاعتراف دون أن يكون لديهم دليل، ولن يمكنوا للمحامى الاتصال بى؛ لأنه ليست هناك عريضة اتهام قانونية، بل ليس هناك - على ما أعتقد - أمر قضائى بالإمساك بى، أمامى الآن أن استسلم للموت بطريقة غريبة أو الهرب .. بدأ عقلى يعمل، كيف أهرب من هذا الحبس، عندما جاء الجندى فى الصباح أخبرته أننى مريض وأريدهم أن يذهبوا بى إلى المستشفى، أجاب الجندى بأنه سيحمل رسالتى تلك إلى سيادة القائد ..

قلت إن ذهابى إلى المستشفى ربما أجد طريقة للهروب، وعاد الجندى فى المساء ليخبرنى رفض القائد ذهابى للمستشفى وإنهم يفكرون فى إحضار طبيب لفحصى، ولكن هذا لن يتم إلا إذا اعترفت بما فعلت وساعتها سيتم نقلى إلى المستشفى الملائم لحالتى ..

بعد أسبوع آخر أخذونى إلى نفس الرجل الأشقر البارد الذى كرر معى ما قاله وما فعله فى المرة السابقة، وختم حديثه معى بأن قال :

- هذه آخر فرصة لك .. حتى أساعدك.

قلت :

- إذا أردت مساعدتى فعلا .. اجعلهم يسمحون للمحامى بزيارتى وساعتها يمكننى أن اكتب ما تريده أنت.

قال فى تخابث :

- وهل تعترف بجريمتك؟

قلت :

- نعم.

قال بسرعة :

- وبماذا تعترف؟

قلت :

- بأننى عاشرت الفتاتين ميرا وسيزا دون زواج.

ضرب المائدة التى أمامه بعصبية واضحة وقال :

- أنت الجانى على نفسك، ستدخل دوامة العذاب.

أطلق صرخة مرعبة، جاءت على أثرها مجموعة من الجنود أشار إليهم أن يأخذوننى إلى (مسيو رينان)، أمسكوا بى بغلظة واقتادونى إلى حجرة فسيحة بها فراش واحد ومجموعة من الأجهزة، أجلسونى على أحد المقاعد حتى جاء رجل أصلع وخلع عنى ملابسى وأرقدنى، حاولت أن اكتشف ما سوف يقوم به هذا الرجل، ولكن دخل آخر يبدو أنه طبيب، وقال للرجل الآخر:

ـ ثلاثة جرامات يا مسيو جامى.

أحـضـر الرجل عـدة الحـقن وبدأ فى إعـدادها، نظر نحـوى الطبيب أو هكذا تصورت أنه طبيب.

ـ هل تشرب كثيرًا أو تدخن؟

قلت بسرعة :

ـ لا .. لماذا؟

قال :

ـ لا تخف يا ولدى .. سوف أجعلك مستريحًا للغاية، أنا لا أحب تلك الطرق البالية التى يستخدمون فيها النار والسكين وتلك الآلات القديمة.

قلت وأنا أحاول أن أتماسك:

ـ ولكن لماذا؟ أنا لم أفعل شيئًا!

قال وهو يبتسم :

ليس هذا عـملى يا ولدى .. لم يحـضـروا لى حـتى الآن رجـلا بريئًا، جميعهم يا ولدى يقولون ما قلت أنت ولكن بعد الحقن أخجل من نفسى لأنى اعتقدت فعلا أنهم أبرياء.

قلت وأنا أنظر إلى الرجل الذى يعد الحقنة:

ـ أنا فعلا برىء يا مسيو رينان.

ضحك وهو يقول:

- أنت تعرف اسمى.. هذا بداية الطريق.. انظر يا ولدى، سوف نعطيك الحقنة، إنها بسيطة، بعد قليل ستقول كل شىء حتى أحلامك مع أمك.

كانت هذه أول مرة أتعرض لمثل هذا، وإن كنت قد أجريت فى موسكو بعض عمليات التخدير لوضع جهاز رسم المخ وقياس ذبذبات حركة المخ، وخاصة الأحلام، وقد وصفت نفسى ذات مرة فى هذا الجهاز، وتم حقنى بالمخدر لكى يقيس زميلى زمن أحلامى خلال نومى، وبعد أن أفقت أخبرونى بكلام غريب عن أحلامى، بل قال زميلى إن بعض أحلامى لم تستغرق سوى بضع ثوان، ولكن هذا كان فى معامل المعهد، أما هنا فهم يريدون اعترافًا بتهمتى، جاء الرجل الأصلع وحقننى، لاحظت أننى لم أنم وأننى أرى الأشياء من حولى، حاولت أن أركز تفكيرى فى حفلات الشراب، قاومت النوم، قاومت الرجل الذى اندفع نحوى وهو يصوب مدفعًا آليا نحوى، انبطحت أرضًا تشبثت بالطين .. غاص الطين بى وأنا أسمع طلقات المدفع الآلى سريعة حول رأسى، بعد قليل استطعت الوصول إلى مياه ترعة الإسماعيلية، لم أعد أسمع صوت طلقات النار، سبحت حتى الشاطئ، كانت الجاموسة السوداء ترقد على حافة الترعة، أثارت دهشتى كيف ترقد هكذا هادئة لا تنزعج من إطلاق النار، أسرعت وركبت على ظهر الجاموسة التى انطلقت تجرى فى هلع، لا أدرى تخاف منى ولم تخف طلقات الرصاص، لم أستطع الهبوط، كان ظهرها عاليًا ومريحًا، تشبثت بظهرها عندما سمعت أصوات زملائى من القوات الخاصة، رفعت رأس الجاموسة

نحوهم، ما أن شاهدونى وكان الفجر على وشك الظهور، ضحكوا بشدة وساعدونى على الهبوط من على ظهر الجاموسة، وراحوا يمسحون ظهرها فى رفق حتى هدأت وأحضروا لها طعامًا، وانطلقت أنا إلى القائد لكى أنقل إليه رسالة القيادة، بعدها حاولت النوم ولكنى فشلت.. صحوت على صوت الرجل الأصلع وهو يقول سعيدًا:

ـ ها نحن حصلنا منك على ما يريدون، ألم أقل لك إن الوسائل الحديثة أفضل.

بدأ فى نزع الأسلاك المحيطة برأسى وجسدى، وأدار الأشرطة التى سجلها، وراح مساعده يلفها ويضعها فى مجموعة من العلب، قال الرجل الأصلع:

ـ سوف أطلب لك الآن بعض الراحة بالمستشفى .

لم أستطع الوقوف، كان رأسى يدور فى كل الاتجاهات، ولا أقوى على التحكم فى حركة جسدى، جذبنى الجنود وأجبرونى على الحركة والسير معهم، كنت أزحف تقريبًا بينهم.

حتى أوصلونى إلى حجرة تشبه الحجرة القديمة، أرقدونى بإهمال وبلا رحمة وهم يتمتمون بكلمات غير مفهومة..

بعد ثلاثة أيام، أعادونى إلى الحجرة الزجاجية، وجدت أمامى نفس الرجل البارد الطويل أزرق العينين .. ما أن نظرت إليه حتى قال:

- أخيرًا اعترفت.

قلت وأنا أكرهه بشدة:

- لم أعترف بشيء وأنت كذاب.

صفعني بشدة بمجموعة من الأوراق التي بيده وقال :

- هاك اعترافك .. خذ واقرأ ووقع عليه بخط يدك.

ثم أشار إلى مجموعة أوراق :

- هذه النسخة بلغتك الغبية والنسخة الأخرى بلغتنا.

قلت في تهكم :

- ومن أدراني أن هذه النسخة هي نفسها النسخة الأخرى، لن أوقع على شيء إلا في حضور المحامي.

صرخ في غضب :

- وقع الأوراق، بعدها يمكن النظر في طلبك.

قلت في إصرار :

- لن أوقع ولن أتكلم إلا بعد حضور المحامي.

زم شفتيه في غيظ، دار حولي عدة دورات ثم قال :

- ساعدني كي أساعدك .. أنا لا أتسلى بل هو عملي .. فقط وقع على الأوراق وأنا أحضر لك المحامي الذي تطلبه، وقع لكي لا أراك بعد ذلك.

لم أنطق، ردد نفس الكلمات وأصررت على الصمت، نادى الجنود الذين ساقونى إلى حجرة التعذيب البدنى، كنت أظن أن تلك الآلات قد أصبحت فى متاحف التاريخ ولكنى رأيتها، هى نفسها التى رأيت صورها عندما كنت فى موسكو، وسمعت عنها من بعض زملاء الغرفة..

جاء رجل غليظ الرقبة، مفتول العضلات، أسود اللون .. قيدنى بسلسلة حديدية، ثم أجلسنى على مقعد حديدى، وضع أمامى مائدة عليها أدوات تشبه أدوات الجراح، قال :

ـ حاول أن تكتب ما يريدونه منك، رحمة بك.

أشرت برأسى رفضًا، رسم علامة الصليب، ثم وضع على أذنى قرطا حديديًا ثم .. آه، سرت قشعريرة الموت فى جسدى، ثم لم أشعر بشىء، يبدو أن الألم بلغ منتهاه . فكرت أن أكتب ما يريدون، سكت ما بداخل دماغى من زن يشبه أزيز طائرة، أفاقنى غليظ الرقبة لحظات لكى يجرب أداة أخرى .. لم أعد أبالى بما يفعل، حملونى إلى غرفتى الصغيرة التى أصبحت عندى قصرًا منيفًا على ضفاف دجلة، حاولت النوم ولكن أزيز الطائرات وقصف القنابل وألسنة اللهب لم ترحمنى بنوم أنعم به، لم أعد أدرى ما الأيام ولا الساعات، تاهت منى الذكريات، لم أعد أفكر فى شىء، تساوت كل الأشياء كما تساوت كل الأمور.

فى أحد الأيام سحبونى إلى الغرفة الزجاجية، رأيت بركة، ظننت أننى أحلم، قالت :

- هناك خبر عن اعتقالك تسرب إلى الصحف.

هززت رأسى لأنى لم أفهم، عادت تقول :

- هذا أمر جيد، لأنهم سيضطرون إلى إعلان تهمتك، وعلى هذا سوف يسمحون للمحامى بالحضور.

قلت فى جدية :

- وما التهمة التى يطلقونها على؟

قالت فى دهشة :

- أو لا تدرى؟!

قلت فى براءة حقيقية :

- ربما كنت أدرى فى الماضى، ولكنى الآن أشك فى وجودك معى الآن .

قالت وهى ترنو نحوى بحب :

- لا تخف .. كل شىء إلى زوال، سوف تستعيد عافيتك وسنتزوج.

ضحكت بشدة، خجلت بركة، أمسكت عن الضحك، لم يكن من اللائق أن أضحك .. مضت وهى تبكى، سحبونى إلى الغرفة الضيقة .. لم أعد أفهم ما يدور حولى، يوم يأخذونى إلى الرجل الغليظ العنق، ويوم يحملوننى إلى غرفة أخرى تبدو وكأنها من غرف المستشفى، قال أحد الحراس :

- لماذا لا يجهزون عليه .. إنه مجرد عربى.

لطمه الجندى الآخر، تشابكا فى عراك، نظرت نحوهما فى دهشة، لم يكن يعنينى لماذا يتشاجرون، ولكنى كنت أدهش من العنف الزائد الذى يتبادلان به اللكمات، . . جاء جندى ثالث وأنهى المصارعة، حملونى إلى غرفة جديدة تبدو أرحب وبها فراش وبعض الأشياء، فرحت بها، لم تكن بها نوافذ، بدأت أعى إلى حد ما بعض الأحداث أفاقتنى المصارعة التى كانت بين الجنديين، ولا أدرى لماذا، مضت الأيام والطعام يصلنى بانتظام، قليل هو ولكنه نظيف، أمرونى بالاستحمام يومًا فى الأسبوع، بدأت السعادة بوضعى المريح تأخذنى، لم أعد أفكر فى الماضى، لا أذكر من أين جئت، بل أحيانًا كنت أتذكر اسمى بمعاناة، أخيرًا قلت فى نفسى لا يهم الاسم، الاسم من وضع الآباء والأمهات، لماذا التمسك بالاسم، ماذا يهم أن تكون چورج أو محمود أو كاكاباكا، أو أى صوت يخرج من الفم، صفير حاد، صفير متوسط، صوت غليظ، يا خسرو صفير حاد رفيع، يا ضرغام صفير غليظ .. لا أدرى لماذا يتعب الإنسان فى التذكر، لماذا يتذكر، دع الأمور تجرى فى مجراها، ودع الأشياء من حولك تتحرر، لا تحاول أن تتدخل فأنت مجرد إنسان، والإنسان ضعيف بطبعه .. طلقات المدافع وأصوات الانفجارات والقصف الدائم وشظايا الطلقات، وشظايا الأجساد، وكتل اللحم المتفحم، وصراخ الطفل الوحيد المحبوس داخل نيشان البندقية، يجرى الطفل خلف العجلة الحديدية، يقودها بعود حطب جاف، يعلن بصوته الرفيع وصول قاطرة البضائع محملة بالأرز والدقيق وعلب الحلوى .. الغائب يعلن الحاضر أن جثمان الرجل المهاجر وصل فى

التو واللحظة إلى محطة النهاية، فمن كان منكم غير ميت يدفنه تحت الحجر، ويوقع عليه ومعه ثلاثة شهود، ثم يمهر توقيعه بخاتم الأبدية .. وراح النهار وأعقبه ليل، ودائمًا ما يروح نهار ويأتى ليل ... والعاقبة عندكم فى المسرات.

٢٣ يونية ٢٠٠٣

## كتب المؤلف

### أولا فى مجال الرواية:

- ثمار الشوك
- الجرار رقم ٣٥
- العام الأول للميلاد
- أشياء حقيقية
- وقتلها الحب
- المزامير
- ديار الجبل
- منشية البكرى
- العصر
- برج الأسد
- ينابع الحزن والمسرة
- النيل يجرى فى دمى «جزءان»

هؤلاء علمونى الحب

### ثانيا: مجموعات قصصية

- يسألونك عن الخوف
- رذاذ الليمون

- الحب كله
- مواطن فى مهمة انتحارية
- عندما ضحكت بيسة
- الرحلة
- زوجتى لاتريد أن تتزوجنى
- هؤلاء علمونى الحب

**ثالثا دراسات:**

- القيادة عند الرسول الكريم
- تطور الفكر الاجتماعى فى الرواية العربية
- الفكر العربى فى الرواية المصرية
- صوت من الجانب الآخر
- هموم المغترب فى دنيا الأدب
- أدباَء أصدقاء
- مستقبل المسرح المصرى
- الجوع/ المشكلة والحل
- القراء بعيون المستقبل
- القصة مصدرا للمعرفة
- تاريخ وتطور القصة المصرية
- سيكولوجية الفرجة
- صالون الحكيم «٣ أجزاء»
- القرن العشرون فى واحد

- المرأة والتنمية
- الخطاب الإبداعى للطف
التغريب فى الحكى

**رابعا: المسرح «مطبوعات مسلسلة المسرح العربى «من عام ٦٣ إلى ١٩٩٧»**

- خضرة الشريفة
- ما بعد الخوف
- حفلة طلاق
- باحبك باحبك
- يعملوها الكبار
- أيام زمان
- مجرم تحت الأختبار
- على حزب وداد قلبى

**- خامسا: قدم للتليفزيون ٣٥ عملا دراميا مسلسلا، كما قدم للسينما عدة أفلام.**

- نشرت قصصه ورواياته ودراساته فى معظم الصحف والمجلات العربية.

- كما نشرت دراساته العلمية فى مجلات العلوم الاجتماعية والنفسية المحكمة فى «لندن وجنيف وبرلين وموسكو».

**كتب عن المؤلف:**

- البطل فى روايات فتحى سلامة
- قراءة فى مسرح فتحى سلامة
- التطور الاجتماعى من خلال روايات فتحى سلامة
- فتحى سلامة كاتبا مسرحيا
- رواية فتحى سلامة والرواية الروسية «أدب مقارن»
- فتحى سلامة فى ميزان النقد «أعداد»
- الرمز والمدلول فى روايات فتحى سلامة «أعداد»
- جدل المراثى الضحكة

الكتاب الماسى

هيئة الكتاب

دار الهلال

مطبوعات مجلة الثقافة

نشرت سلسلة بجريدة المساء

دار التعاون

هيئة الكتاب

هيئة الكتاب

هيئة الكتاب

دار الحياة

الثقافة الجماهيرية

هيئة الكتاب

إدارة الأدب
أخبار اليوم
هيئة الكتاب
قصور الثقافة
دار الحياة
نار، القصة «مطبوعات»
وكالة القاهرة
«دراسة بالفرنسية»
دار الفكر العربى
دار المعارف
دار المعارف
دار الحياة
دار الشاعر
المجالس القومية
إصدار مجلة الفيصل
هيئة الكتاب. مكتبة الأسرة
هيئة الكتاب. مكتبة الأسرة
المجالس القومية
هيئة الكتاب. مكتبة الأسرة
هيئة الكتاب. مكتبة الأسرة
مكتبة الأسرة

مكتبة الأسرة
مكتبة الأسرة
مكتبة الأسرة
مجنون عاقل جدا
. عقول للبيع
. ممنوع دخول الستات
. على ورق الخوخ
. عشرة على باب الوزير
. ناس عقولها مكن
. ألمظ
. شباب آخر زمن
محمود قاسم
عاطف عز الدين
د. إقبال أحمد
ماجدة على
د. محمود الشاذلى
مديحة السيد
مديحة السيد د. حسام عقل
د. حسام عقل

١١٢٢

# الفهرس


الفصل الأول ........................ ٣

الفصل الثانى

مستر نوبى ........................ ٣٧

الفصل الثالث ........................ ٥٧

الفصل الرابع ........................ ٨١

الفصل الخامس ........................ ١١٩

الفصل السادس ........................ ١٣٩

الفصل السابع ........................ ١٦٥

الفصل الثامن ........................ ١٨٥

الفصل التاسع ........................ ٢٠٧

كتب المؤلف ........................ ٢٢١



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW. egyptianbook. org

E - mail : info @egyptianbook.org